الصامتون

تجارب في الثقافة والديموقراطية بالريف المصري



www.kotobarabia.com

عز الدين نجيب

الصامتون

تجارب في الثقافة
والديمقراطيَّة
بالريف المصري

عز الدين نجيب

فهرس

الجزء الأوَّل : القافلة

الجزء الثاني : برج النور

إهـداء

إلى ابنتي نسرين....

ع.ن

مُقَدِّمة

المثقـف في أتون الصراع

بقلم: صلاح عيسى

في أقطار عالمنا العربـي المتخلـ ـف يكثـر الحـديث عن المثقـف المنقسم بين ما يؤمن به وبين ما يمارسه، وتلك حقيقة كما أنها مأساة. الفلاح والعامل أبطال فـي القصـيدة والقصـة والمسرحيـة لكن ما أقل الذين يعرفـون الفـلاح والعامل من مبدعي هذه الأنواع الأدبيـة. تلك أكثر الملامح قسوة من مأساة حواجز الثلج المتراكمة بين القول والفعـل، بين الشعار والممارسة، بين الفكر والحياة. ولكـن الأمـر لا يدعو للتشاؤم، ذلك أن المثقـف في أتون الصـراع تجربـة ليست نادرة لو حاولنا أن نبحث عنها فسنجدها قطعا.

عز الدين نجيب واحد من جيل المثقفين المصريين الـذين ولـدوا علـى مشـارف الحـرب الثانيـة، وكـان علـيهم أن يصطدموا في بدايات اليفاعـة بواقـع يمتلـئ بـالأحلام الورديـة ثم يتخم بالإجهاض الشرس والقاسي... ليس صدفة أن هذا الجيل عرف المعتقلات والسجون والمنافي، وبـرغم هذا قال كلمته ببسالة نادرة وتحمل فوق طاقته، ودفـع ثمـن إخلاصه بما يؤمن به.

وأظنُّ أن هذا الجيـل – كمواقـع موضـوعي منفصـل عن مفرداته – ما زال مستعدا للبذل والعطاء بصرف النظر عمن أعطوا مشكورين ومضوا شاكرين... وبين هذا الجيـل مارست مجموعة محدودة – كان عز الـدين نجيـب مـن ألمعها– تجربة زرعـت بهـا نفسـها فـي طـين الأرض المصريـة وامتزجت بالفلاحين والعمـال، شـمت روائـح عرقهم، لمست مصر الحقيقة، تلك التي لا تظهر في إعلانات التليفزيون.... كان على هذه المجموعة أن تحمل إلى القرى البعيدة والمدن الإقليميـة الصغيرة كلمة الثقافة، وأن تضـع المصطلح في قوة التجربة. وفي حين بدا أن الثقافة هي نتاج العواصم أساسا، فإن مشكلتها لدى المثقـف الملتزم تتعقـد؛

لأنه مطالب بأن يحل – بضراوة – تناقضات داخـل نفسـه وفي صفوف من يلتزم بهـم، وأن يواجـه مناخًـا سياسـيا واجتماعيا بالغ الغرابة، وأن يتعلـم لغة جديدة للفن والحياة، وأن ينفض عن نفسه زيف المدينة لا استنارتها، وتطفـلها لا تقدُمها.

في أتون هذه التجربة عاش عز الدين نجيـب ومفـردات أخرى من جيلنا. من بعيد كان صدى تجـربتهم يصـل؛ إذ حتمت ظروف مصر في الستينيـات أن يتفـرَق الجيـل إلى مجموعات تجتهد بتنويعات على نفس اللحـن: البحـث عن ثقافة وطنيـة ديمقراطيـة مستنيرة، تبني مصر وكـل أقطار عالمنا العربي – بالمصنع والمدرسة، وتحيل الـوطن – كما بشـر الطهطاوي قبل مائة عام – إلى محل للسـعادة المشتركة. في تلك السنوات تفرَق الجيـل بـين مهـاجرين إلى بلاد بعيدة، وتائهين في أروقـة المؤسسـات الثقافيـة الرسميـة، يبيعون الكلام صباحا ويندبون الـنفس لـيلاً، وغائبين في الخمر أو في الرطانة والثرثرة، وبـين غـائبين في السجون وفي المنـافي ومعـذبين فـي أقبيـة مظلمـة، أو منتشرين في الحقـول يصـارعون التخلـف والقهـر والأكذوبة.

في واحدة من تلك السنوات ترك عز الدين نجيب مرسمه وقصصه ومقالاته ورحل إلى الريف، ليمارس واحدة من أغنى تجارب جلينا وأعمقها دلالة، وإذا كان قدرا أن يلتقي جيلنا بكل تنويعاته مرّة ومرّات في السجن، فقد كانت لي فرصة لسماع هذه التجربة، قادنا الحديث إليها ذات ليلة باردة، في زنزانة ضيقة ومزدحمة بليمان طرة، وأشهد أنها بددت الوحشة ودفعت بعض عبوس الروح. وبرغم خاتمتها المأساوية ملكنا القدرة فضحكنا على أنقاض قافلة عز الدين نجيب، كما ضحك زوربا اليوناني على أنقاض قنطرته، ذلك أنها كانت درسا لنا ولهم: إنهم يملكون الجياد ورجال الضبط والتعليمات والزنازين، لكننا بقدر عطائنا نملك القدرة على السخرية من كل هذا وتحمله، والبدء من جديد.

وإذ تحوَلت التجربة إلى نص مكتوب، فإن أسلوبها الـذي يحمل حسا من الشحن العذب لم يكن وحـده الـذي بهرنـي – إذ كنت أتوقـعه من فنان يكتب باللون والكلمـة – لكـن شجنها العذب يقدم نصا هو في حد ذاته وثيقة تفجـر عديـدا من القضايا والدلالات، مطروحة للنقاش، ويكفيها أنها إعلان بأن المثقـف العربي في أتون الصراع، تجربة ليست نادرة ولا ينبغي أن تكون كذلك، ولنضحك لأن الشـمس تشـرق من جديد على أنقاض قافلة يتيمة في الريف، أو فـي قلـب زنزانة وحيدة في السجن[1] .

"صلاح عيسى"

---

[1] كتـب الأسـتاذ صـلاح عيسـى هـذا التقـديم للجـزء الأول من الكتاب "القافلـة عنـدما نُشِـرَ بمجلـة "الثقافـة" العراقيـة في يوليو ١٩٧٥.

مدخل :

هذا الكتاب يضمُّ تجربتين ثقافيتين في الريف المصـري، بينهما عشرة أعوام كاملة، وتختلفان في الزمـان والمكـان والظروف، ومع ذلك فإن كل تلك العوامل تجمع بينهما أكثر مما تفرق.

فرغم اختلاف الزمان بين ١٩٦٨ و ١٩٧٨، فإن النـاس في الزمانين لا تكاد تختلف وإيقاع الحياة في الريف المصري أبطأ من أن تغيره عشر سنوات.

ورغم اختلاف المكان: بين قرى محافظـة كفـر الشـيخ وقرى محافظة الدقهلية، فـإن طبيعـة الحيـاة والعلاقـات والمشاكل بين الإقليمين لا تكاد تختلف إلا في التفاصيل.

ورغم اختلاف الظروف بين العمل مـن خـلال جهـاز من أجهزة وزارة الثقافة في الستينيات والعمل مـن خـلال جهاز تنظيم الأسرة والسكن في السبعينيـات، فإن الأسـس العامة التي تحكم الجهازين واحدة؛ لأنها تعبير عن بنية فوقية واحدة، قد تتغير أشكالها الخارجية ولكن يبقـى مضـمونها، كانعكاس لأوضاع تزداد رسوخًا في قاع المجتمع المصري.

ورغم اختلاف الأوضاع بين نظامين سياسيين متبـاينين (أواخر الستينيـات وأواخر السبعينيـات) فإن هذا الاختلاف لا يمسُ الشروط الأساسية التي تحكم الفترتين معا؛ مما يجعل النتائج توشك أن تكون متشابهة.

ولا يعني كل ذلك إلغاء قانون التغيـر، فهنـاك تغيـرات حتمية تحدث في الواقع كل يوم وقد حرصت على تقصـيها وتسجيلها في كلتا التجربتين، إنما أعني التغيرات الجوهريـة في بنية الواقع على كل تلك الأصعدة. ربما كان الأدق القول إن هناك تراكمات جديدة حدثت خلال تلك السنوات العشـر ضاعفت من التناقضات القديمة.

ولعل الاختلاف الأساسي بين التجربتين يكمن في طبيعـة الأشخاص الذين حملـوا مسـئولية كـل تجربـة منهمـا، وفي أسلوب العمل فيهما... فقد كان لجذوة الشباب المندفعـة ولحرارة الحس الرومانسي الجياش وللتوتر الناجم عن عنف الاكتشاف الأول للواقع بما فيه من نشوة وألم... كان لـذلك كله قيمة إضافية على عمق التجربة الأولـى فـي الواقـع، وقراءة علمية منظمة لهذا الواقع: قيمة إضافية علـى عمـق التجربة الثانية.

لكن ما دفعني لنشر هذا الكتاب لم يكن مجـرد الرغبـة في عرض معاناة ذاتية لعدد من المثقفين الوطنيين المخلصين تنتهي بالفشل في معظم الأحيان، لكن الأهم مـن ذلـك هـو الرغبة في الكشف عن مساحة شبه منسية في الواقع العربي المعاصر، وهي واقع المجتمع الريفي بكل تخلفـه ومعاناتـه وتناقضاته، وإمكانات التأثير والتغيير فيه من خـلال عمـل كتائب طليعية من المثقفين، ممن يرفضـون تلـك الثنائيـة المكتوبة كالقدر على المثقـف العربـي: ثنائيـة (النظريـة والفعل) والتي تنتهي عادة بانفصام تام بينهما.

ورغم كثرة التحديات التي تستطيع أن تواجهها مثل تلـك الكتائب الطليعية المثقفة في حركتهـا الديناميكيـة بـالريف – وأهمها التحديات السياسية، والتي قد تجتازها ولو مرحليـا بشكل أو بآخر متطلعة إلى اقتحام الواقع وتغيير الفكر السائد فيه – رغم ذلك فهناك تحد أكبر ما زال المثقـــف العربـي أعجز من أن يواجهه: هو الثقافة القائمة فعلاً فـي مجتمـع الريف والكامنة في قيم الجماهير وتراثها الطويل والتي تحدد نوعية استجاباتها لأي ثقافة وافدة أو وعي جديـد، وكثيـرا ما تقف عائقًا أقوى من عوائق السلطة أمام أي تغيير.

وربما لهذا السبب فإن الأجهزة الرسميـة في مصر – بعد عشر سنوات من التجربة الثقافيـة الأولى بكفر الشيخ– لم تتدخل لقمع التجربة الثانية بالمنصورة طوال ثلاث سنوات رغم كل الدراسات والمشروعات التقدمية التي قام عليها مشروع التنمية الريفية، لكنها تدخلت فجأة وأوقفت كل شيء عندما بدأ الالتحام بين الجماهير وبين أصحاب التجربة، الذين عرفوا مفاتيح نفوس الأهالي ونفذوا بوعيهم الجديد إلى إدراكهم، ومزجوا ثقافتهم العصرية بالايجابي والمتقدم في ثقافتهم، ووضعوا أقدامهم على بداية طريقهم الحقيقي للخلاص، بدءا من الخروج من قوقعة الصمت الأزلية، والتمرُّس على أن ينطقوا ويشاركوا ويغضبوا ويتحرَّكوا لصنع تقدُّمهم بأيديهم.

من هنا يأتي التكامل بين التجربتين اللتين تقعان على طرفي عقد من الزمان وتشابهان في نهايتيهما، فبالرغم من أن كل القناديل قد تطفئها هوج العواصف، إلا أن تنوُّع الخبرات والوسائل سوف ينمي قدرتنا على صنع قناديل جديدة لا تستطيع إطفاءها رياحُ الظلام...

عز الدين نجيب

الجزء الأوَّل

القافلة

الصامت يصغي

(١)

المكان : الساحة الرئيسية لقرية "مطوبس" إحدى قرى محافظة كفر الشيخ.

الزمان : ١٤ إبريل ١٩٦٨ وقت الغروب.

السيارة العجوز تلهث متعبة قبل أن تتوقـف فـي أحـد جوانب الساحة الترابية، ننزل منها يكسونا غبـار وإنهـاك رحلة طويلة مضنية عبر طرق وعرة، بالرغم من ذلك تملؤنا حيوية لم تفتر للعمل، وفي عيون الفريق الصغير العدد كـان يتألق حماس لم تخمده العادة، بينما ننهمك في حل مقطـورة السيارة التي تحمل المولد الكهربائي، وإخراج آلـة عـرض سينمائي لا يقل عمرها عن عمر السيارة، وتعليـق الشاشـة على جدار مبنى في طرف الساحة، وبالقرب منهـا مكبـر الصوت، ثُم نمدُّ الأسلاك الكهربائية والكشافات إلى المبنـى ونوصلها بالأشجار القريبة، تتطاير كلماتنا العملية المقتضـبة وسط ضـجة الأطفـال الـذين أخـذوا يتوافـدون سـريعا ويحاصروننا مهللين في ابتهاج، ويتحسسون كل شيء تقـع

عليه عيونهم، بدءا من السيارة حتى جهاز التسجيل الذي أخذ يذيع بعض الأغنيات والموسيقى الفلكورية – فتلك كلها عجائب بالنسبة لهم – صائحين بصيحاتهم الجذلة وشقلباتهم وكرنفال جلابيبهم وطواقيهم المقلمة المهلهلة مهرجانًا يليق بليلة لا تُنْسى....

ومن بعيد كان الطريق المؤدي إلى القرية مزدحما بالموكب الأزلي منذ عصر الفراعنة للفلاحين بدوابهم وأحمالهم في طريق العودة من الحقول، أشباحا سوداء مسربلة بسحابة غامضة من الغبار على خلفية من سماء رمادية جهمة.

لم تكن زيارتنا لـ "مطوبس" مفاجأة لأهلها؛ فقد كانت مدرجة ضمن جولات "قافلة الثقافة" في برنامج شهر إبريل المخصص لمناقشة بيان ٣٠ مارس الذي قدَمه جمال عبد الناصر إلى الأمة بعد مظاهرات فبراير ١٩٦٨، وقد أخطرنا المسئولين بالمحافظة ببرنامج القافلة؛ لكي يقوموا بإبلاغه لمختلف القرى كما جرت العادة، لكننا تعلمنا خلال عشرات الزيارات السابقة لقرى المحافظة أن الأهالي لا يأتون إلى مهرجان القافلة إلا بعد أن يصلوا المغرب

ويتناولوا عشاء يسندهم حتى نهاية السهرة؛ ومن ثَم كنا نحرص على أن نصل قبل الغروب، ونعدُّ الترتيبات للعرض السينمائي والترفيهي والمؤتمر الذي يعقبه قبل مجيئهم، وعادة كانت تستقبلنا طلائع من شباب القرية المتعلمين، فنستجلي منهم صورة عامة لواقع القرية.

كان مثيرا للدهشة ألا نجد اليوم في انتظارنا أحدا، وألا يخف إلينا غير الأطفال، وحتى انقضاء الوقت الكافي لصلاة المغرب وتناول العشاء لم يأتِ إلى الساحة غير عدد محدود من الفلاحين في حذر وتردُّد، وهم يرقبوننا في صمت.

وبدأنا نشمُّ في الجو رائحة شيء غريب...

إن زيارة "القافلة" – الجناح المتحرك من قصر الثقافة بالعاصمة كفر الشيخ – تعدُّ حدثًا تاريخيا في حياة أي قرية، لا يمكن أن يمرَّ في صمت، ليس فقط لأنها تشاهد السينما لأَوَّل مرَّة في حياتها، وأحيانًا تشاهد برنامجا من المنوعات المسرحية والشعرية والغنائية، وليس لأن ساحتها تموج بأضواء الكهرباء التي لم تشهدها من قبل، أو لأن سيارة حكومية تحمل علامة نسر الجمهورية واسم وزارة، وأجهزة

عجيبة، وبها موظفون يرتدون زي الأفندية، جاءت لا لتأخـذ منهم شيئًا – كما تعوَدوا من سيارات وممثلي الحكومة خلال عشرات السنين – بل ولأوَل مرَة جاءت هذه السيارة لتعطيهم شيئًا، ولو كان ليلة بهجة.. إلا أن كل تلك الأسباب ليست أهمَ ما كان يعطي لزيارة القافلة لقرية ما خطورتها...

ذلك أنه ذات ليلة أمسكت يد فلاح عجوز من إحدى قرى كفر الشيخ بميكروفون القافلة، مقاطعا الحديث الذي كان يلقيه صفي الدين أبو العطا – وكيل القصر بعد انتهـاء برنـامج المنوعات، عن المعركة والصمود وواجب الجماهير... إلخ.. أمسكت يد العجوز بالميكروفون وتـدفق صـوته الأجـش المجروح مخاطبا المئات من أهل القرية باللغة التي يفهمونها – ولم نكن نفهمها نحن من قبل – كاشفًا عن الحقائق المريرة بواقعهم، مهاجما ببسالة القوى المستغلة – قديمها وحديثها – التي تعتصرهم وتحكم مصيرهم، ثُـم أنهـى حديثـه قـائلاً في استشهاد ويده ترتعش بـالميكروفون، وسـط الصـمت المبهور الذي خيم على مئات الرءوس بالساحة.

- أنا عارف إني بعد ما أقول الكلام ده حانطخ قبل ما أوصل البيت... لكن ما نيش خايف... إيه الفـرق بين الموت وبين العيشة دي...

ومرَت اللحظات ممدودة ولـم يقتَـل الفـلاح العجـوز، ولم تنقض على الجالسين صاعقة، فتقدَم فلاح ثـانٍ وثالـث، وما هي غير دقائق حتى كان الأهالي يتسابقون على حجـز دورهم في الحديث وقد بدا أنهم نسوا وجودنا تماما، ولم يعد موجودا إلا أسباب شقائهم والميكروفون، وها هم يقبضـون لأوَل مرَة في تاريخهم.... عليهما معا.. منذ تلك الليلة أصبح "المؤتمر" تقليدا ثابتًا عند زيارتنا لأي قرية، وتحرَكت الميـاه الراكدة في بحيرات الصمت!

لكن أليس من الضروري – قبل أن نصل إلـى ذلـك – أن نتعرَف على الرحلة معا منذ بدايتها؟

***

(٢)

أعترف بأنني – حين عرض عليّ "سعد كامل" مدير عام الثقافة الجماهيرية[١] في أوائل ديسـمبر ١٩٦٦ مهمـة إدارة قصر الثقافة بكفر الشيخ – لم أكن أعرف عن تلك المحافظة إلا – بالكاد – موقعها على خريطة مصر، وتصوُّرا غامضا عن أحراش ومستنقعات تلك المنطقة في شمال الدلتا، التـي كانت معروفة كمنفى للمغضوب عليهم من الموظفين؛ لهـذا لم أخف عنه تردُّدي في قبول تلك المهمة، خاصة وأنني كنت خارجا لتوي متعبا من تجربـة اسـتغرقت ثـلاث سـنوات في العمل بقرى الثقافة بالإسكندرية وبورسعيد قبـل تـولي سعد كامل لمسئولية الثقافة الجماهيرية التي كانـت تُسـمى من قبل "الجامعة الشعبية"[٢] ورغم الظروف المتقدمة نسـبيا في هاتين المـدينتين، والإمكانـات الطيبـة التـي تـوفرت في قصورهما الثقافيـة، ورغم أن مجال نشاطي فيهما كـان فنيا بحتًا يتفق مع دراستي، واهتماماتي – خاصة في مجـال الفنون التشكيلية – إلا أنني عجزت عـن الاسـتمرار بعـد أن اختنقت بالعقلية البيروقراطية التي كانت تحكم ذلك الجهاز

وتفرغه من أية فاعلية حقيقية؛ مما جعلني أفرُّ في صيف ذلك العام ١٩٦٦ إلى القاهرة مفضلاً أن أبقى في الظل في مرسم متواضع بأحد قصـور الثقافـة الخاويـة علـى عروشـها – بجاردن سيتي – متفرغًا لإنتاجي الفني والأدبي.

لكن حيوية وحماسة سعد كامل للقيام بتجربة جديـدة ذات رؤية ثورية جعلتني أقيم المسألة في ضوء جديد.

فإن واقع المثقفين في تلك الفترة – بعـد أن حـل القـادة اليساريون تنظيماتهم سـنة ١٩٦٥ – كـان يعكـس حالـة من التفسخ والضياع، وعلى الرغم من التناقضـات الشـديدة فيما بينهم تبعا لمواقفهم من مسـألة الحـل، ومـن النظـام الناصري القائم، ومن الواقع، وعلى الرغم أيضا من كثـرة كلامهم عن الاشـتراكية والجمـاهير وضـرورة العمـل، إلا أن أغلبهم كانوا يشتركون في شيء واحـد: هـو أنهـم لا يعملون شيئًا وسـط هـذه الجمـاهير، وكانـت مبـادرة عبد الناصر إلى الاسـتعانة ببعضـهم للعمـل بالمؤسسـات الثقافيـة – عن طريق الدكتور ثروت عكاشة وزير الثقافة – هي الجزء الثاني من خطته لاحتواء اليسار بـداخل النظـام وتفريغه بعد الجزء الأول منها وهـو دعـوتهم إلـى حـل

تنظيماتهم[٣] .. وقد أثار ذلك الكثير من الجدل والخلاف حول حسن نوايا النظام من جهة، وإمكانية عمـل شـيء جـدي من خلال أجهزته الرسميـة من جهة أخرى.

وكنت ضمن من كانوا يرون أن مقاطعة كـل الأجهـزة الرسميـة كمبدأ دون العمـل شـيئًا، والاكتفـاء بـالثرثرة، قد لا يكون أفضل من ممارسة التجربة، حتى ولو لم تـنجح. وكانت تجربة سعد كامل الجديدة محكا فعليا لاختبـار نوايـا الجانبين: جانب النظام وجانـب المثقفـين، وأقـول تجربـة سعد كامل بالذات؛ لأن مجالهـا هـو الجمـاهير الشـعبية في الريف والمدن الصغيرة، ولن يمكنها تجنب الصـراعات التي تدور فيها، فضلاً عن ذلك كان هناك عامل ذاتـي هـو رغبتي في معايشة تجربة جديدة مثيرة تعمق خبراتي بالواقع وتشحذ طاقاتي التعبيرية.

وقد فهمت أن اختيار سعد كامل لي – دون سابق معرفـة شخصية– كان يرجع إلى أسلوبه في تجاوز أشواك السـاحة الثقافيـة والسياسية....

فرغم تنحيته بشكل حاسـم لمعظـم العناصـر العتيقـة في جهاز الجامعة الشعبية إلا أنه اعتمد – في ملء فراغهم – على عناصر من الشباب ليس لها ماضٍ سياسي معـروف، وعلى شخصيات لها دور ديمقراطي عام...[٤].

قلت لنفسي: حسنًا..... فلنجرب.

وهكذا قبلت المهمة.........

(٣)

كان سعد كامل قد أخبرني بأن مركزا للثقافة يوجد بالفعل في كفر الشيخ، وأن مهمتي هي أحياؤه وتحويله إلى قصر الثقافة.

وسافرت إلى كفر الشيخ دون إخطار أو ترتيبات، ولعلـي فضلت ذلك؛ حتى يكون وصولي إليها ذا طـابع روائـي... وقد كان.

وصلتها في المساء.... استقبلتني مدينة صامتة شبه خالية غارقة في الأوحال والأمطار، لا أعرف من أهلهـا أحـدا، ولا ينتظرني أحد. رحت أخوض الوحل حاملاً حقيبتي أكـاد أتجمد من البرد، باحثًا عن مركز الثقافة، سائلاً المارة القليلين دون جدوى، لم يكن بالمدينة فيما يبدو مكان بهذا الاسـم... وكنت أعرف أن زميل الدراسة الفنـان التشـكيلي محمـود بقشيش، والشاعر محمد عفيفي مطر يعملان في كفر الشيخ، وكنت حريصا على لقائهما بعـد وصـولي إلـى المركـز، فأصبحا الآن يمثلان أملي الأخير إن لم أستدل على مكان.... لكني استبعدت أن يكون أكثر شهرة من مركـز الثقافـة... أخيرا هرش بائع سندوتشات كهل مـؤخرة رأسـه وحـرَّك قلنسوته الصوفية إلى الأمام وقال محاولاً التذكر:

- يكون قصدك مكتب الاستعلامات؟

وكالغريق تشبثت بالاسم، على الأقل سوف أجـد هنـاك معلومات عن ضالتي، وبجوار باب شـقة بالـدور الثـاني في بيت مظلم ذي درجات متهدمة دخلت إليـه مـن ممـر موحِل، وجدت لافتة صغيرة كُتِب عليهـا بخـط الـدواوين الحكومية العتيقة (مركز الثقافة والاستعلامات). كان البـاب مغلقًا والجرس معطلاً. طرقت الزجاج، أخيرا أطـل رجـل عجوز وهو يحاول أن يفتح عينيه بصعوبة كأنما استيقظ لتوه من النوم – ونظر إلـيّ متسـائلاً دون أن يحمـل وجهـه أي تعبير... سألته:

- المدير موجود؟

كنت أحمل معي خطابا إلى المدير السابق لأتسـلم منـه العمل، وكان نقله من المدينة فيما علمت بناء علـى رغبتـه مما أعفاني من الحرج. قال الرجل ولم يكن قد أفـاق تمامـا (علمت فيما بعد أن اسمه عم حسن، وهو السـاعي الوحيـد تقريبا في المركز، وأنه لا يفيق أكثر من ذلـك صـباحا أو مساء بالرغم من أنه لا يتعاطى أية مخدرات).

- لا.... لكن الأستاذ فؤاد موجود.

لم أسأل من هو الأستاذ فؤاد، وعلى الفور طلبت مقابلته.

أخذني عم حسن إلى الداخل.

كانت الشقة معتمة الضوء، تعبقها رائحة خانقة هي خليط من رائحة الجدران القديمة الرطبة ورائحة دورة المياه.

في إحدى حجرات الشقة الثلاث حيث علقت على بابهـا لافتة تحمل كلمة "المكتبة" كان الأستاذ فؤاد يجلـس وسـط أرفف شبه خالية وقد تناثرت حوله في فوضى أكـوام مـن كتب مهلهلة، كان يبدو فوق الأربعين بقليـل، غيـر مبـال بشيء. حتى بعد أن عرف هويتي لم يبدِ أيَّ اهتمام. أخبرني بأنه لم يغادر هذا المكان منذ خمسة عشر عاما، ونصـحني بألا آخذ الأمور مأخذ الجد؛ لأننا معشر صغار المـوظفين – (كان يعرف بخبرته أنني ما زالت في درجـة صـغيرة) – نُستخدَم دائما كأجهزة دعاية لكبار الموظفين الذين يغرقوننـا في المشاريع الوهمية والوعود بمرحلة جديدة تختلف عن كل ما فات حتى يحصلوا على بعض الترقيات والمكاسب؛ فيهبط حماسهم حتى للوعود، ويعود كل شيء إلى ما كـان عليـه. وحين قلت له إننا بالفعل بدأنا مرحلة مختلفة جذريا عما مـرَّ به طوال الخمسة عشر عاما الماضية مـن عمـر الجامعـة الشعبية ضحك ضحكة بلا صوت ونهض قائلاً:

- كنت تسألني عن عفيفي مطر. هيا نذهب إليه.

المبيت؟... لا تنشغل من هذه الناحية ، سوف تبيت عندي حتى ندبر لك مكانًا.. إنني أعزب مثلك.

في الطريق إلى محمد عفيفي مطر خضنا فـي الوحـل، وتخبطنا في طرق مظلمة، إلا أن حرارة اللقاء – بل الفرحة المشتركة به – أنستني ذلك وجعلتني أشعر بأننـا أصـدقاء قدامى. كان يقيم وحيدا في شقة بالمساكن الشعبية مكـوَنـة من حجرة واحدة هي حجرة النوم والمكتبة والمطـبخ وكـل شيء، ولم يكن بها من أثـاث غيـر السـرير، ثُـم أكـوام من الكتب، وحكى لي عن معاناته العبثية في كفـر الشـيخ، وعن تخلفها المرعب في كل شيء وعلى كـل المسـتويات، ولم يخفِ إشفاقه عليّ في المهمة الجديدة، وكان قد أمضـى أحد عشر عاما يعمل مدرسا بتلك المحافظة وما زال غريبـا ووحيدا فيها، حكى لي عن بؤس الفلاحين الذين عمل طويلاً في قراهم المنسية خلف الزمن، عن القبضة الغليظة العميـاء التي تدكهم تحت مستوى الإنسانية، قبضة الجـوع والجهـل والإقطاع وسلطة الموظفين، حكى لي عـن ولائـم النفـاق على مكاتب المسئولين، عـن العقليـة الريفيـة المحنطـة،

عن الموظفين الغرباء المنفيـين يسـفحون علـى المقـاهي المنتشرة وقتهم الذي بلا ثمن، يمضغونه مع لعـب الـورق والنرد وحذلقتهم الجاهلـة وحكـاوي زمـان، أو يسـتلقون على أسرَّة الفنادق الرخيصة وبجـوارهم حقـائبهم المغلقـة يمارسون انتظارا لا ينفد لقرار النقل بعيدا عن هذا المنفى... وملأنى حديث عفيفي مطر بالتشاؤم والإحبـاط: لـم يكـن يتحدَّث عن واقع محكوم بظروف قابلة للتغيير، بل كان ذلك هو الناموس الأبدي لهذا الواقع، ولم ولن يحيد عنه... البؤس والقهر والدمامة والغربة قدر ميتافيزيقي في هذا العالم.

وذهبت لمقابلة محمود بقشيش في الفندق الصغير الـذي يقيم به منذ نقلي إلى كفر الشيخ موظفًا بمديريـة الشـباب، ولم تستطع أشواقنا المتبادلة وحديث الذكريات أن تزيل كثبان الصمت والوحدة العابسة التي كوَّنتها الغربة والأيام الرتيبـة المفتقدة المعنى على نفس صديقي.

في الصباح قابلت المدير الكهل الذي سأحل محله: نموذج للموظف المصري الأزلي، يعبد اللوائح الرسميـة، يسـتف الملفات بعناية، يرتجف من المسئولية والرؤساء، ولا يكـف عن الشكوى. أتممنا إجراءات التسليم والتسلم، وعند خروجي أخبرني بأنه ذاهب لوداع السـيد المحـافظ جمـال حمـاد، وعرض عليَ أن أصحبه ليعرفني به، وافقت. كان يهمني أن أتعرَف على جميع أبعاد هذا "العالم".

عندما ُأذِن لنا بدخول مكتب المحافظ، فوجئـت بالمـدير السابق يقول وهو ما زال عند باب الحجرة:

- صباح الخير يا سعادة الباشا.

ثُم يندفع نحوه وينحني راكعا أمامه، ثُم يتناول يده ويقبلها. وقفت في مدخل الحجرة الواسعة المترفة حائرا مروعـا... هل عليَ أن أفعل مثله؟

أوشكت أن أندفع خارجـا قبـل أن ينتبـه إلـيَ، لـولا أن المدير السابق أشار نحوي ليعرفه بي.

تصرَف المحافظ بلباقة ملقيا جانبا بسلوك الباشا وصـاف الضابط القديم، وتقدَم مرحبا بي، معفيا إياي من الحـرج... ورغم مظهر الود والبساطة الذي حاول التعامل بـه معـي، وهو يحدثني عن اهتمامه بالثقافة واسـتعداده لتقـديم كافـة الإمكانات اللازمة لي، إلا أن صورته وهو يمدُ يده للرجـل الكهل ليقبلها ظلت ماثلة شبحا بيني وبينه....

حجرتان في شقة عطنة الرائحة، موظف أوحـد عـدمي يتمتع بشيئين: السخرية المرَة وكرم الضيافة، سـاعٍ عجـوز لا يفيق، واقع نسيه الزمن في غياهب القرون الوسطى، مدينة موحلة لا مبالية ممتلئـة بالمقـاهي والمـوظفين المنسـيين والغرباء والصمت، تصيب بالعقم والصمت فنانهـا وتمـلأ روح شاعرها بالقهر والمرارة... هذا هو الواقع الذي وجدته في انتظاري والذي كان عليّ أن أتعامل معه.

***

(٤)

في الصباح التالي كنت جالسا مع سعد كامل فـي مكتبـه بالقاهرة، أضع بين يديه تقريرا مكتوبا عما شاهدته وسمعته.

قرأه بعناية ونظر إليَ قائلاً بهدوء:

- طيب... وبعد؟ ... قلت:
- لقد كان مطلبي الوحيد منك حين كلفتني بالـذهاب إلى كفر الشيخ، هو أن تحقق رغبتي في العودة، إذا شـعرت بعـدم القـدرة علـى الاسـتمرار... وقد وعدتني.
- ما زال الوعد قائما... أليس من حقي أن أفهم أولاً؟
- أعتقد أن التقرير واضح.
- لا أرى فيه شيئًا غريبا.
- ربما كنت قادرا على إحياء مركز ثقـافي، لكننـي بالتأكيد لا أستطيع إحياء جثة.

نهض من خاف مكتبه وراح يتمشى في الحجـرة حتـى وقف أمام النافذة المطلة على فيلات جاردن سيتي، ثُم التفت إليَ قائلاً بنفس الهدوء:

- كان يمكنني أن أرسلك إلى بعض المدن الكبيرة المريحة التي عملت بها من قبل وتعرفها جيدا... هل تحبُ هذا؟ - لا تحبُ. ولا تريد أيضا كفر الشيخ. حسنًا. ومن يذهب إلى كفر الشيخ وما شابهها؟... إن رسالتنا ليست في المدن الكبيرة، فلديها من وسائل الترفيه والتثقيف الكثير، إنما رسالتنا الحقيقية هي الوصول إلى ذلك الواقع المتخلف، الذي تُسميه جثة، وهو ليس كذلك في الحقيقية؛ إن تخلفه يعني الحرمان الكامل من كل شيء، وفي قلب حرمانه يوجد التعطش الشديد للحياة بكل صورها ومنها الثقافة، وهو من أجل هذا أحوج إلى كل جهودنا، ومن أجل هذا بالتحديد تثمر فيه جهودنا أكثر من أي تربة أخرى... لكن كيف نكشف المدخل لإشباع هذا التعطش؟... لا بدّ لنا أولاً أن نعرف هذا الواقع جيدا، ونعايشه، لقد تصوَرت أنك – أنت بالذات – الذي يستطيع أن يفعل هذا، فإذا بك تعود هاربا بعد يومين اثنين... كيف يمكن أن تدرس واقعا جديدا عليك كل الجدَة

في يومين؟ هل مدينـة كفـر الشـيخ بمحافظهـا، وموظفيها، ومقاهيها، هي كل الواقـع فـي كفـر الشيخ؟.... ماذا عن مئات القـرى؟... هـل زرت قرية واحدة؟... هل تعرف ما يحتاجه الفلاحون؟.

قلت:

- كيف أشبع احتياجهم وليس لدي أي شيء؟
- إن لديك سيارة وآلة عرض سينمائي، وهذه بدايـة تُحسدُ عليها.
- لكنك تعلم أن السيارة معطلة، تحتاج مبلغًا ضـخما لإصـلاحها لـيس متـوافرا عنـدي أو عنـدك فيما أظنُّ، وآلة العرض بلا ميكانيكى يشغلها... ثُم إن...

قاطعني وهو يجلس على مقعد ويواجهني:

- ها قد بدأت تدخل في التفاصيل، وفـي الشـكاوى المعهودة التي يحاصـرني بهـا كـل المـوظفين التقليديين حولي... كلهم يشتكون، كلهم يريدون كذا وكذا، ولم يقل أحد ماذا يسـتطيع أن يفعـل هـو بجهوده الذاتية... إنني أؤكد لك لو أنـك عايشـت

بعض ظروف الواقع الذي تعمل فيه، سوف تكتشف عشرات الحلول الذاتية... لقد تسلمت أنـا أيضـا جهازا خاويا من كل الإمكانيات، وعددا هائلاً مـن الموظفين، يمكنني أن أعطيك منهم أيَ عدد تشـاء، وحتى الآن لا أتلقى من الوزير إلا وعودا، لكنني لا أريد أن ألعب معك نفس اللعبة، فأنا لا أعدك بـأي شيء إلا إذا تحققت وعود الوزير، عندئـذ سـوف ألبي كل احتياجاتك كلما كان ذلـك فـي وسـعي، لكن... عليك أن تبدأ معتمدا على نفسك. لا داعـي للعجلة، ادرس الواقع هنـاك أولاً، تعـرَف علـى الناس، ابن جسورا بينك وبينهم، ولا تَعِـدْ بشـيء حتى تكون قادرا عليه... موافق؟

أدركت أنني أمام اختبار صعب... ها هي المسئولية كلها تُلقَى على كتفي وحدي، فهـل أكـون علـى مسـتواها أولاً أكون؟... إن الذي كان في ذلك الاختبار – تلـك اللحظـة – لم يكن فقط هو المثقـف الملتزم، أو الفنان، بل كان الإنسان فيَ، وقد وضِعَ في موقف وجودي.

ولم يطل ترَدُدي...

لقد اخترت الطريق الصعب.

(٥)

كان أوّل ما فعلته حين عدت إلى كفر الشيخ، هو الاتصال بأعضاء الفرقة المسرحية بها، كنت قد سمعت كثيـرا عـن تجربتهم الفريدة في تقديم مسرحية "الزوبعة" لمحمود ديـاب في الهواء الطلق ببعض قرى المحافظة بإمكانات مذهلة فـي بساطتها، وكان قد أخرجها لهم المخرج حسين جمعة بأسلوب مسرح السامر. أدركت أن التجربة لا يمكن أن تكون مجـرد حمـاس بعـض الشـباب، أو مغـامرة مخـرج طمـوح، بل لا بدّ أن يكون وراءها "فكر" قبل كل شيء.

قابلت بعض قادتها، وصحّ ما توقعته...

وجدتني أمام كيان متبلور، هيكل تنظيمي متين هو مجلس الإدارة، قائم على أساس ديمقراطي بالانتخاب، مكتب فنـي لاختيار النصوص، برنامج تثقيفي للفرقـة، تحكمـه رؤيـة واضحة للدور الاجتماعي والسياسي للمسرح، ويطمح لوضع أساس لمسرح الفلاحين... مواهـب حقيقيـة فـي التمثيـل والديكور والإخراج – وكان معظم الأعضاء من المـوظفين الصغار في مواقع مختلفة بالمحافظة، وبقدر متانة هذا الإطار

وبريقه، فقد بدا لي إطارا فارغًا؛ إذ كانت الفرقـة يطويهـا النوم والصمت كما يطويان المدينة، تحلم بأمجادها القديمـة ولا تعرف كيف تنهض وتبدأ من جديد.

أدركت على الفور أنهم ضالتي المنشودة، وكان حماسـهم لي لا يقل عن حماسي لهم، ولم يكن للفرقة مقرٌ أو مسـرح؛ فبيوتهم هي مقرُ اجتماعاتهم، والساحات العامة فـي المدينـة والقرى هي مسارحهم.... وبسرعة فائقة ذابـت بيننـا كـل الشكليات، وأصبحنا أصدقاء، نجلس كل يـوم فـي منـزل أحدهم، بين أسرته، كنا في سن متقاربة، وفكـر متقـارب، وأهداف متقاربة ولم يكن ينقصنا غير العمل.

وسألت "عطية عـويس" – مـدير الفرقـة – "وزغلـول عبد الله" – رئيس المكتب الفني – عن إمكانية التعاون معـي أكثر من مجرد النشاط المسرحي فقالا: بلا حدود...

قلت:

- حتى لو طلبت من المحافظ انتداب عدد منكم للعمل معي؟

قالا : نعم.

وذهبت إلى المحافظ مرَّة ثانية؛ لقيني بترحيب أكثر من المرَّة السابقة. سألته عن الإمكانات التي يمكن أن يقدمها، قال لي:

- ما هي احتياجاتك بالضبط؟
- هل أقولها بالجملة أم بالقطاعي؟
- العملية فيها فصال إذن؟... حسنًا... دعنا نرَ.

تردَّدت لحظات كيف أبدا ثُم جازفت قائلاً:

- إنني أحتاج مقرا جديدا، وبضعة موظفين، وبعض الفنيين لقافلة الثقافة وبعض النقود لإصلاحها، و...

قاطعني وهو يضحك مستغربا:

- إنك تريد قصر ثقافة مما جميعه.

قلت بسرعة:

- بالضبط.
- وأين وزارة الثقافة إذن؟
- لا وجود لها هنا في غير شخصي الماثل أمامك.

وشرحت له الظروف الصعبة التي تمرُّ بهـا الـوزارة، والإدارة الجديدة للثقافة الجماهيرية، وفكرتـي عـن إقامـة القصر بشكل إقليمي بحت، وبالإمكانات المحلية؛ وبذلك يمكن أن يكـون نموذجـا فريـدا بـين المحافظـات. وبـالرغم من أن وزارة الثقافة كانت الوحيدة – تقريبا – التي لم تكـن أجهزتها بالمحافظات تخضع لإدارة الحكم المحلي؛ مما يجعل من الصعب على المحافظ مساندتها بشكل فعال، فقد فوجئـت حقًا بالمحافظ يوافق بلا تحفظات على كل مطالبي. طلب مني أن أدرس ظروف البلد، وأبحث بين المباني الخالية عن مقر مناسب، وأتعرَّف ببعض العاملين الذين يمكن أن يعـاونوني، وسوف يأمر على الفور بتنفيذ ما يستقرُّ عليه رأيي.

وبعد أيام كنت أقدم إليه قائمة بعشرة أسماء من أعضـاء الفرقة المسرحية بينهم من لديه خبرة في الشـئون الإداريـة والمالية والقانونية، بل حتى في أجهزة العـرض السـينمائي وميكانيكا السيارات.. ومع تلك القائمة قدَّمت لـه مـذكرتين: الأولى خاصة بالمقر الذي استقرَّ عليه رأيي، وكـان مبنـى على الطراز الإسلامي كان من قبل مقرا للمعهـد الـديني، والثانية أطلب فيها سلفة مالية (قدرها مائة جنيه وكانت وقتها

مبلغًا محترما) لإصـلاح قافلـة الثقافـة وتـوفير بعـض الاحتياجات العامة، وكان المحافظ بالفعل عند كلمته؛ فأشـر بالتنفيذ على كل ذلك، بل لقد اقترح أن نأخذ مبنـى جمعيـة الشبان المسلمين الذي كان ناديا ملكيا في الماضـي لإمكـان بناء مسرح في جزء من الحديقة المحيطة به، على أن تنتقل الجمعية إلى مبنى المعهد الديني، ثُم أمـر جهـاز الإنشـاء والتعمير بالمحافظة بأن يتولى كافة الإصلاحات والتعـديلات التي أطلبها على نفقة المحافظة.

وكان ذلك فوق الخيال.

الصامت يطرب

(٦)

لم أنتظر حتى يتمَ إعداد المقـر وإصـلاح القافلـة ونقـل العاملين، بل شرعت على الفور في تهيئة الظـروف لإقامـة النشاط الجديد. كنت قد تعرَفت – بمساعدة أعضـاء الفرقـة محمود بقشيش وعفيفي مطر – بعدد من المهتمين بالثقافة في المدينة بينهم من يكتب الشعر أو المسرح أو يمارس الرسم أو العزف، وبينهم من يهوى أو يتذوق كل ذلك. وضعنا برنامجا مبدئيا لبعض الندوات والأمسيات الفنية، برنامجا يستطيع إذابة طبقة الجليد واللامبالاة المتراكمة على المدينة الصـامتة كـان عماده الفن، استعنت على إنجازه ببعض الأصدقاء من الفنانين والأدباء والنُقـاد بالقاهرة... كان كل ما لديَ مـن إمكانـات الوزارة: دفتر استمارات سفر، وجهاز تليفزيون، كنت أتصـل تليفونيا بأحد هؤلاء الأصـدقاء وأخبـره بموضـوع النـدوة وموعدها، فإذا ما وافق – وغالبا كان يرحب – أرسـل إليـه بالبريد استمارة السفر ليأتي بها على نفقة الدولـة، أمـا عـن المكان الذي أقيم فيه الندوة فقد وافقت جمعية الشبان المسلمين، حتى قبل توجيه المحافظ باستلام مقرها، علـى فـتح قاعتهـا لإقامة الندوات بها، وأما مبيت الضيوف وطعامهم فقد كانـت تتكفل بهما غالبا استراحة المحافظة.

كان لتلك الأمسيات تأثير السحر فـي جمهـور المدينـة؛ فقد كانت تلبي، بالضبط احتياجه من الثقافة: أمسيات موسيقية وغنائية وشعرية وسينمائية ومسـرحية وتشـكيلية، ونجـوم في الصحافة والفن، لم يكن هذا الجمهور يحلم بأن يـراهم، يأتون إليه ويسهرون معه في ألفة حميمة. كان هذا الجمهور في البداية يتكوَن ممن يمكن أن نسميهم "مثقفـي المدينـة" ، مـن مهندسـين وطلبـة ومـوظفين ومحـامين وأطبـاء.. أما الجمهور الفقير الأمي من العمال والفلاحين والحـرفيين فلم أصادفه إلا نادرا... وفي محاولة لجذبـه بـدأنا تجربـة بسيطة.. كان قد أتيح لنا حضور عريس ريفي بإحدى القرى القريبة تسمى "الخادمية" استمعنا فيه إلى بعـض الأغنيـات الفلكورية التي هزَتنا من بعض فتيات القريـة، فاتفقنـا مـع أهلهنَ على أن يقيموا لنا حفلاً في كفر الشيخ نظيـر مبلـغ معين، على أن نتكفل بإعادتهنَ في نفس الليلة، ولما كانوا في حالة فقر مدقع؛ فإن إغراء النقود كان أقـوى مـن سـطوة التقاليد، واتفقت مع الشاعر الفنان صلاح جاهين والناقد الفني كمال الجويلي على الحضور للمشاركة في تلك الأمسية.

وجاءت الفتيات بملابسهنَ الريفية الملونة، بعد أن أعلنـا عن الحفل في المدينة وفوجئنا بقاعة "الشبان المسلمين" تزدحم بمئات الحاضرين، ولأوَل مـرَة أرى وجوهـا ممصوصـة حرقتها الشمس وأضناها العمل، لا تنتمـي إلـى المثقفـين أو البرجوازية، وانطلقت الفتيات يقدمن أغنياتهنَ الموروثـة التي تفوح بعطر الأرض والعمل والخبز والحزن والحب... وساد خشوع، ثُم انطلق الناس معهنَ في غناء جماعي صادر من قرار القلب، يزيل طبقـات الخجـل والتـردُد والزيـف ويجعلهم أكثر إنسانية ودفئًا.

وجنَ صلاح جاهين بالتجربة، وأصبح من نجوم أمسيات قصر الثقافة..

وفي إحدى تلك الأمسيات– وكان عنوانها "كيف نغنـي" – كان صلاح جاهين يتحدَث عن حاجتنا إلى أن يـدخل الغنـاء في حياتنا جميعا، ليس غناء المطربين أو أجهزة الراديو، وإنما غناؤنا الذي نؤلفه ونغنيه نحن في أعيادنا ومناسباتنا القوميـة؛ وبهذا وحده يمكن أن يصبح لنا فن قومي، وأثناء حديثه تقـدَم من المنصة عامل ميكانيكي بملابس ملطخة بالشحم، تقدَم فـي حياء، لكن بإصرار. تصوَرنا أنه يريد أن يـدلي برأيـه فـي

المناقشة، وفجأة انطلق يغني مـوالاً، بصـوت كـان، رغـم خشونته، عميقًا واثقًا، أسيان وشامخًا معا، كان اسـمه "سـعد راجح"، ولم يكن أحد من الحاضرين يعرفه، وهكذا راح سـعد الميكانيكي الصامت الخجول – يغني ويغني، والناس تستزيد، وبعد الغناء راحوا يتكلمون؛ وأصبح للكلام معنى جديد.

وهكذا أصبح للقصر جمهوره من كل الطبقات، وحين تمَّ لنا الاستقرار في المقر الجديد، بعد حوالي شهر مـن بدايـة النشاط، أيقنت أن علينا أن ننتقل خطوة جديدة في المواد التي نقدمها، فإن تلك الفقرات المقدَّمة، رغم تشويقها وإرضـائها للجمهور، تصل به إلى حالة مـن الاسـتمتاع السـلبي دون أن تدفعه إلى التفكير أو تطلق رغبة التعبير فيه، ولن يتمَّ ذلك إلا بطرح قضايا عامة تتطلب منه المشاركة بالرأي.

وبدأنا برنامجا جديدا يتضمن – بالإضافة إلـى الفقـرات السابقة – موضوعات مثل: كيف نرتفع بمسـتوى القريـة؟، حول واقع كفر الشيخ، الجماهير والديمقراطية، الشباب والعمل السياسي، السينما الجديدة، حرب التحرير الشعبية، حول الشعر الحديث، حاجتنا إلى التفكير العلمي، سـيد درويـش والفـنُّ القومي... وصاحب هذا البرنامج دعوة شخصيات عامة لهـا مساهماتها في تلك الموضوعات؛ ليحدثوا الجمهور فيها.

وقد تجاوب معهم بصورة فاقت ما كان متوقعـا، حيـث تحوَلت الندوات إلى مجال حيوي للمناقشة الموضوعية التـي تحترم الرأي والرأي الآخر بنفس الدرجة.

وتحوَل القصر في شهور قليلة إلى مركز جذب جماهيري في المدينة حتى في الليالي التي لم تكن فيهـا بـرامج كـان الناس يأتون... في البرد القارس يأتون... تحـت الأمطـار يأتون.. بالبدل والفساتين والأفرولات والجلاليـب يـأتون.. وتمضي الساعات وتشتعل القاعة بالدفء والنشـوة والحـدَة والغضب أحيانًا... وينتصف الليل... ولا يمضون.

وتحوَلت في مقابل ذلك – دون أن ندري – قاعات الاتحاد الاشتراكي إلى أماكن خالية لا يطرقها أحد، حتى أن بعـض العناصر الشابة من قيادات التنظيم بدأت في الحضور إلـى القصر متسللة في صمت، ثُم معلنة عن نفسها بالمشاركة في المناقشات وهي في الغالب من العناصر التي أنجبتها منظمة الشباب الاشتراكي من ذوي الميول التقدمية. وبدأت تظهـر في القاعة وجوه غريبة ذات عيون زائغة وآذان مشـرئبة – يسجلون ما يدور من كلام ويحفظون ملامح الوجوه البـارزة تهيئة لملء التقارير، بل لقد بدأت اكتشف أكثر مـن واحـد

منهم مخصصين لي بصفة شخصية، يلازمني أحـدهم منـذ أحضر في الصباح ويوصلني حتى مكتبي، وأحيانـًا يجلـس معي في المكتب، دون أن أستطيع منعه، لا لشيء إلا أنني لم أتعوَد منع إنسان من دخوله، ويتسلمني آخر عند عودتي إلى مسكني في الظهر حتى يعرف من قابلتهم في الطريق وهكذا في فترة العودة في المساء.

كنت في كثير من الأحيان أشفق عليهم؛ فقد كان واضـحا جهلهم وعدم درايتهم بهذا المجال الجديـد، وكـانوا يبـدون متورطين وتعساء، حتى أن – "عبد الكريم" (وهو الشـخص المخصص لمكتبي) بدأ يشكو لي – بعد أن أخذت الأمر معه بالفكاهة والسخرية. مـن متاعبـه الشخصـية فـي العمـل وفي حياته الخاصة، وكنا أحيانًا نتعامل معهم بقسوة ونهشهم كالذباب، فكانوا يطأطئون رءوسهم بذِلـة ويمضـون، ثُـم يعودون من الناحية الأخرى، تماما مثل مرافقي "يوسف. ك" في رواية "القصر" لـ "كافكا".

ولجأ قادة الاتحاد الاشتراكي – فـي محاولـة لاسـتعادة جماهيرهم من القصر – إلى سياسة جديـدة : فقـد تحمسـوا للاشتراك فـي النـدوات ضـمن برامجـه، دون أن يـدروا أن في ذلك مقتلهم، لقد رحبت بالطبع، وأجلستهم بكل احتـرام على المنصة وتركتهم للجماهير؛ فانقضـت علـيهم تعـريهم من أقنعتهم وتكشف عوراتهم، المتمثلة فيما يتمتعون بـه مـن امتيازات وما يتسببون فيه من كوارث فيما يتحكمون فيه مـن مصالح الجماهير، وبدأ "القادة" يفقدون أعصـابهم ويهـاجمون ليس الجماهير "المضللة" وإنمـا العناصـر المندسـة بيـنهم والمحرضين الغرباء لهم، أو "خفافيش الظلام" على حد تعبيـر أمين الاتحاد الاشتراكي في ذلك الوقت خلال إحدى النـدوات بالقصر وهو يصرخ في الميكروفون ويدق المنضدة بيده...

وينبغي أن أسجل لـ "جمال حماد" موقفه من كل ذلك، فقـد حرص على عدم التدخل في سياسة القصر بـأي شـكل مـن الأشكال، رغم كثرة الشكاوى والدسـائس مـن قِبـل الاتحـاد الاشتراكي والقوى التي وجدت في نشاط القصر تهديدا مباشـرا لمصالحها، ولعله كان يرى في ذلك نوعا مـن حفـظ التـوازن بإقليمه؛ فقد كان الاتحاد الاشتراكي مركز قوة يزاحمه في نفوذه، ويتدخل حتى في المسائل التنفيذية التي هي من صميم عمله.

ولم يكتفِ المحافظ بهذا الموقف بل واصل تدعيمه المادي والمعنوي للقصر فكان يحرص على حضور بعض الأنشطة البارزة فيه، وعلـى اسـتقبال ضـيوف القـاهرة، خاصـة المشاهير، ووافق على مشروع إقامة المسرح ملاصقًا لمبني القصر وقُدرت تكاليفه بسبعين ألف جنيه، لـم تـدفع منهـا الوزارة عند إبرام العقد – الذي حضر توقيعه سعد كامـل – غير عشرين ألفًا ، وبدأ العمل في إنجازه على الفور.

لكن أعضاء الفرقة – وقد تمَ انتداب عشرة منهم للعمـل بالقصر – لم ينتظروا حتى ينتهي بناء المسرح، بـل بـدءوا على الفور تدريباتهم على مسرحيات قصيرة ذات طابع نقدي لواقع الريف.. وكان من الأمور المألوفة أن يجمع موظـف الحسابات مثلاً أوراقه من فوق مكتبه على عجـل، ويتركـه مسرعا إلى صالة البروفات؛ إذ يسمع من يناديـه لأن دوره في المسرحية قد حان، ويؤدي (الممثـل – الموظـف) دوره حتى ينتهي ثُم يعود إلى مكتبه وحساباته.

وفي نفس الوقت بدأ تكوين جماعات مختلفة في الفن والأدب والموسيقى والسينما والفن التشكيلي، وكان عفيفي مطر ومحمود بقشيش يتعاونان معي في ذلك، حيث أمكن انتداب عفيفي من التربية والتعليم كل الوقت، وانتداب بقشيش في الفترة المسائية، وأمكن عن طريق هذه الجماعات إتاحة الفرصة للعديد من المواهب الناشئة وتقديمها للجمهور. وساعدنا في ذلك أن بشائر الدعم المادي من القاهرة أخذت تهل، في شكل آلاف الكتب الجديدة للمكتبة، (اخترناها بأنفسنا) وعشرات الآلات الموسيقية والاسطوانات غربية وشرقية، وأجهزة للإذاعة والتسجيل، وخامات للرسم وحوامل للعرض.. إلخ وكان سعد كامل بهذا يفي بوعده لي، كما كان لجهود زميلي "صفي الدين أبو العطا"، الذي انتقل من القاهرة للعمل معي وكيلاً للقصر، فضل كبير في كل ما تمَّ.

ومن أنجح تلك الجماعات، جماعة الفيلم أو "ندوة الفيلم المختار"، وهو الاسم الذي عرفت به على مستوى قصور الثقافة، حيث كان يجتمع عشاق السينما الجديدة والطامحون إلى دراسة أساليبها وجمالياتها، لمناقشة فيلم جديد مرّة كل أسبوع، مع نخبة من النُقاد والمخرجين والأدباء القاهريين، يحضرون خصيصا لهذه المهمة. كانت الندوة إحياء للتجربة الرائعة التي قام بها الأديب الكبير يحيي حقي في الخمسينيات أيام أن كان مديرا لمصلحة الفنون، وقد عمل سعد على تعميمها في معظم القصور بعد أن نجح في الحصول على أفلام حديثة من المراكز الثقافية الأجنبية ومكاتب التوزيع، وكانت الخطة أن ينتقل الفيلم من قصر إلى قصر مع النُقاد الذين يتولون مناقشته مع الجمهور. إلا أن ندوة الفيلم المختار بـ "كفر الشيخ" تميزت بأنها لم تقتصر على مناقشة جماليات السينما، بل أولت اهتماما كبيرا للفكر الذي تحمله الأفلام والواقع الذي تنطلق منه، وكان النُقاد يدهشون من مستوى الوعي على كلا الصعيدين الفني والفكري – لدى جمهور كفر الشيخ، وكانت هذه المناقشات عادة تستمرُ عدة ساعات بعد عرض الفيلم، دون أن يصيب الملل الحاضرين.

(٧)

كان ذلك العمل، الذي استغرق خمسة شهور حتى مـايو ١٩٦٧ بشقيه الأفقي والرأسي – يخدم جمهور عاصمة الإقليم وحدها، ولم نكن قد انتقلنا بالنشاط مرَّة واحدة إلى الريـف، فلم تكن القافلة قد تمَّ إعدادها حتى ذلك الوقـت؛ ممـا كـان يشعرني دائما بأننا نسير بساق واحدة.

لهذا فقد كان يوم ٧ مايو ١٩٦٧ يوما تاريخيا فـي حيـاة القصر؛ إذ تحرَّكت فيه القافلة لأوَّل مرَّة إلى الريف. كانـت القرية هي "منشأة زعلوك" وهي معقل من معاقل الإقطـاع، كانت أوَّل مرَّة في تاريخ القرية تـدخلها عربـة حكوميـة – لا لتأخذ، كما هي العادة بل – لتعطي، وبلا مقابل، وتجمع ما يقرب من خمسة آلاف فلاح في ساحة القريـة، جـاءوا في البداية متسللين في حذر، متوقعين أن ترتفع العصا فجـأة لتنهال عليهم، وحين وجدوا المسرح والأضواء ترحب بهـم؛ تدافعوا وتزاحموا. كانت الفرقة المسـرحية قـد حضـرت بمسرحية من فصل واحد هي "الناس اللي ما معاهاش" كتبها مؤلف شاب من المنصورة هو "فـؤاد حجـازي" وأعـددنا

لها مسرحا على عدد من القواعد الخشـبية "البارتكـابلات" حملناها معنا من القصر، وإن كان العـرض كـأي بدايـة فيه كثير من السذاجة والثغرات، وبدا الفلاحون الجالسـون على الأرض تحت الأضواء بطواقيهم البيضاء، كحقل هائـل من القطن المتفتح، وهم يشاهدون بانبهار واندماج العـرض المسرحي، الذي كشف لهم كيف يستغلون، ثُم وهم يهتـزُّون طربا مع فرقة المنوعات الغنائية، ثُم يستغرقون مـع فـيلم "زينب" في صمت وخشوع، كأنهم في صلاة الجمعة، بينمـا كنت أقف وحدي بعيدا في الظلام، أغالب انفعالي الجياش.

وتتابعت زيارات القافلة لقرى مثل الزعفـران، برمبـال، البكاتوش، سخا، منشأة علي، مسير، الخادمية... وفـي كـل مرَة تتصاعد حرارة اللقاء؛ فكل قرية تتوسط مجموعة مـن القرى والعِزب التي يتوافد أهلها بالآلاف حتى تأتي القافلـة. كان الظلام والصمت الأزليين يتبددان في فيضـان الضـوء البهيج، وتدبُّ في خـلاء الجـرن حيـاة دافقـة، ويتحـوَّل إلى ساحة عيد، يتمنى الفلاحـون أن يسـهروا فيـه حتـى الصباح.

إلا أن الموقف على الجبهة السياسية والعسكرية في ذلـك الشهر (مايو) كان يتصاعد في اتجاه آخر... اتجاه الحـرب ضد إسرائيل، ولم نكن فيما نقـدم إلـى الفلاحـين بمعـزل عن ذلك، لكن كانت تعوزنا المواد الملائمة، فكنا لا نجد غير بعض الأفلام التسجيلية القصيرة عن حرب ١٩٥٦، ورغـم ذلك كانت تشعل حماس الفلاحين.

وشهد القصر في تلك الأيام حركة محمومـة: عشـرات الفنانين، من مسرحيين ورسامين وشعراء.. يجندون أنفسـهم من أجل المعركة، بالمسرحية واللوحة والقصـيدة والنشـيد، تحوّلت همسات الشعر وأنات الأوتـار ولمسـات الفرشـاة الناعمة إلى صرخات وبقع دموية، إلى دقات طبول وهـدير بحار، إلى لحن شامل عارم يعلن: والله زمان يا سـلاحي.. ملأنا سماء المدينة الساكنة بالغضب، وشوارعها باللوحـات والنداءات النارية التي رسمها محمود بقشيش وعبد المـنعم مطاوع وبكري محمد بكري وفاروق الفرا وحامد صـقر – طبعنا النشرات التي ترصعها القصائد الدموية، وعفيفي مطر يتغنى في إحداها بـ "المخاض الدامي".

قائلاً:

"قومي أيا أجداث من صمت القفار

قومي أيا أجداث... قومي أيا أجداث

الشمس تُولَد في السماء... عنقود نار

والأفق صقر ملتهب...

والنخل يزحف بالخناجر مسقطًا تمر الغضب

والأرض ترقص رقصة الميلاد

تمتلئ السواقي بالدماء..."

وفجأة... في ذلك الصباح المشئوم – صباح ٥ يونيـو – حلت الصاعقة... ومعها حل الشلل... والصمت..

***

الصامت يغضب

(٨)

ظل الحال كذلك حتـى يـوم ٩ يونيـو، حـين أعلـن عبد الناصر قراره بالتنحي، وفجأة أيضا انفجر في المدينـة المصعوقة شيء كالبركان، لم يكن ما يحركهم هـو الحـزن على عبد الناصر، وإن كانوا يعبدونه، ولا علـى أنفسـهم، بل كان ما هناك هو الغضب، الغضب على أن تكون هذه هي النهاية، هي الهزيمة الكاملة... وكـان انفجـارهم مطـالبين بعودته رفضا لها، ولأن يتركهم يواجهونها وحدهم وهم ليسوا مسئولين عنها..

لكن آخر ما كنت أتوقعه أن يكـون المصـب لغضـبهم ولطوفانهم البشرى هو قصر الثقافة... لكن هذا ما حدث.

فبتلقائية، وبلا أية قيادة من أحد، اندفعوا إلى القصر مئات بل آلافًا يتجمعون فيه، يحتلون قاعاته وحجراته وممـرَاتـه وحديقته، وتحوَلت الحجرات إلى أماكن إسـعاف لعشـرات المواطنين الذين أُغمِي عليهم من وقع الصدمة... ومن هناك أرسلوا إلى المحافظ يطالبونه بالحضور فـورا... عـرض عليهم أن ينتقلوا إلى مبنى المحافظة فرفضوا، طالبتهم قيادات

الاتحاد الاشتراكي أن ينتقلوا إلى مبناه فرفضوا... وإزاء هذا الإصرار جاء المحافظ جمال حماد إليهم، وراح يخطب فـي جموعهم المكدّسة في الحديقة ذات الخمسة أفدنة، مهدئًا وهم يصرخون ويبكون مطالبين بالسفر فورا إلـى القـاهرة، وأن يدبر لهم سيارات تنقلهم، وكأنهم بذلك سيوقفون الكارثة.

وقبل أن يحل الصباح كانت هناك مواكب مـن عشـرات السيارات تابعة للمحافظة وللمصالح الحكوميـة وللأهـالي، تنطلق من أمام القصر إلى القاهرة في هدير جنوني.

حدث كل هذا وأجهزة الاتحاد الاشتراكي صامتة.. تنتظر التعليمات.

***

(٩)

الأسابيع تمرُ، والشهور تتكوَم، وعلى ربوع البلاد ينتصب مأتم كبير، والعجز والإحباط يكبلانـي كالحديـد، والنـاس تعذبني بالحضور إلى القصر ينتظرون شيئًا لا يعرفونـه... ماذا هناك لأفعله أو أقوله لهم؟ ما جدوى أي شيء؟.

أجهزة الإعلام الرسميـ ـة تتخـبط، وأجهـزة الثقافـة الجماهيرية أيضا تتخبط، فليس لديها مادة تقـدمها لقصـور الثقافة على مستوى الموقف.. وشيئًا فشيئًا بـدأ كـل شـيء في العودة إلى ما كان عليه – الحياة العاديـة تأخذ مجراها، المتاجر تمتلئ، مظاهر الترف على طبقات معينـة تتبـرَج، الطبقات المخلوعة – شكلاً – تلقي بالأقنعة شامتة وتمـارس استغلالها للناس بلا رقيب، الطبقة الجديدة تتبجح بما تنهبـه من أقوات الشعب وحقوقه، متشدقة في نفس الوقت بشعارات ثورية عالية الرنين، الممثل السياسي لكل أولئك – الاتحـاد الاشتراكي – يواصل حملاته الديماجوجيـة، غير مكتـرث بمشاعر الناس وعدائهم له، أجهزة الأمن السياسـي تنشـط مسعورة لإحصاء حركات الطلائع الرافضة وسكناتها وملء

التقارير والتسجيلات... وتعمُّ الـبلاد حالـة مـن التسـيب واللامبالاة: تكثر الملاهي الليليـة وبيوت الدعارة التي تتخذ أسماء مستعارة، تمتلئ دور السينما بأفلام الجنس والجريمة، تتصاعد الاتهامات من الصحف ومجلـس الأمـة والاتحـاد الاشتراكي ضد وزارة الثقافة؛ لأنها تأوي الشيوعيين وتروج للانحلال الخلقي وتطمس الـدين، تتزايـد الحملـة فتصـل إلى تحميل اليسار مسئولية الهزيمة وتطالب بإبادته، يتـرنح ثروت عكاشة – وزير الثقافـة – مـن وقـع الضـربات، ومعه يترنح – بالطبع سعد كامل. تؤتي الحملة أكلُها فتتراخى قبضة ثروت عكاشة عن التمسك باليساريين فـي وزارتـه، وتتراخى قبضة سعد كامل أيضـا عـن التمسـك بسياسـته الحاسمة ضد القيم الرجعيـ ـة والمـواد المبتذلـة، فتتـدفق على القصور الأفلام التجاريـة، ويصـبح النشـاط السـائد في الثقافة الجماهيرية هو ليالي السمر، من رقـص وغنـاء وفرفشة، فضلاً عن أناشـيد المـديح فـي النبـي المختـار وآل البيت، باسم إحياء التراث.. وقد كان كل ذلك فيما يبـدو تنفيذًا لسياسة عبد الناصر الذي كان مصمما على أن ينْسِـي الناس جوَ الهزيمة والحرب، وقد أعلن ذلك في بعض خطبه.

بدأت أفيق من صدمة الهزيمة بعـد أسـابيع، وحاولـت مع زملائي- على الفور- العمل على تقديم برنـامج جديـد يناسب الظروف، وكان المسرح هو أملنا الوحيد.

أعدَّت الفرقة المسرحية عدة مسرحيات قصـيرة تعمـق معنى المقاومة وتهاجم الاستعمار، بعضها مؤلفـة وبعضـها ممصرة عن كُتاب عالميين، بدأنا نطوف بها عددا من القرى والمدن، لكن الظروف الجديدة بعد العدوان لم تكـن تسـمح بسهولة بالاعتماد على العروض المسرحية؛ فقـد انكمشـت الميزانية بدرجة كبيرة، كما أُبعِدَ المحافظ جمال حماد لأسباب غامضة، وظل مكانه شاغرا لفترة، وأُلغِيت انتدابات أعضاء الفرقة، وكان فوق الاحتمال بالنسبة لي أن أستعين بـالفقرات الترفيهيـة البحتة؛ رافضا بذلك المساهمة في عملية التخدير العامة للجماهير بعد الهزيمة، ومع ذلك فلم يكن أمامي غيـر عرض الأفلام السينمائيـة التي تصلني أسبوعيا من الإدارة رغم رداءتها وضعف مستواها، وبدأت أدرك أن الجهد الذي نبذله عبث لا طائل وراءه.

وبدأت طاقات الـزملاء تضـعف، وأخـذوا يشـعرون بمعاناتهم التي تفوق الاحتمال في طقس من أقسى ما تعرفـه أقاليم مصر.. بردا ومطرا وهم يخوضـون فـي الأوحـال والظلام ويعـودون بعـد منتصـف الليـل غيـر قـادرين على التواصل مع زوجاتهم وذويهم.

وظهرت أوَّل حالة انسحاب من فريـق العمـل، عنـدما أبلغني الزميل يونس حجازي المشرف على القافلـة رغبتـه في إلغاء انتدابه والعودة إلى عملة السابق بالمحافظة؛ لأنـه لم يعد قادرا بأي حال على الاستمرار، ولم يكـن بوسـعي أن أقف أمام رغبته، كنت أقدر أسبابه تماما، وكنت فوق ذلك أقدر أن معاناتنا وسط الفلاحين بلا طائل، حتى ولو اقتصـر نشاطنا على عرض بعض الأفلام...

كنت ألاحظ أن همّ كل الفلاحين هو أن يعيشوا لحظـات استمتاع سلبيـة بما يشاهدونه من صور متحركة على شاشة السينما، لا يعلق منها في مخـيلاتهم إلا بعـض الحركـات أو المواقف الفكاهيـة أو مشاهد العنف أو الميلودراما الزائفة الدموع، أو صور الجنس التي تدغـدغ حرمـانهم ويسـيل لها لعابهم، فما إن ينتهي العرض ويبدأ أحد "أفنديـة" القافلـة

الكلام في الميكروفون، ولو استخدم كل الشعارات الثوريـة عنهم، حتى يبدءوا في النهوض ومغادرة الساحة قليلاً قليلا، إلى أن نجد أنفسنا وحدنا مع السيارة والأجهـزة الصـامتة، في حين تتناهى إلينا أصوات متفرقة تحاول تقليد إسـماعيل يس مثلاً وهو يمسخ صوته مطلقًا نكاته الفجـة، أو نشـاهد فلاحا يافعا وهو يحاول تقليد فريد شوقي بأن يسـدد لكمـة عنيفة إلى زميل له فيتهاوى الأخير على الأرض، متقمصـا الدور، وهو يتمرَّغ في التراب.

حتى وجدتني ذات مرَّة أمام فيلم تقوم ببطولتـه صـباح – لا أذكر عنوانه – كان غاية في الإسفاف لـيس لاحتوائـه على عوامل الإثارة المعروفة، فهذا أمر طبيعي في الأفـلام، بل لاحتوائه كمـيـة من السموم الفكريـ ـة التـي تكـرس لسيطرة الأرستقراطية وللتطلعـات الانتهازيـة التـي يبيـع الإنسان من أجلها كرامته.. ولم أستطع الاحتمال أكثـر مـن هذا؛ فأمرت بإيقاف عرض الفيلم، وكتبت إلى سـعد كامـل خطابا أبلغة فيه احتجاجي على إرسال مثـل هـذا الفـيلم – وأدعوه إلى إيقاف تلك السموم من التصدير إلـى جمـاهير الريف؛ حتى لا ندمر بيد كل ما نبنيه باليد الأخـرى، ولـم

أكتف بهذا، بل نسخت من الخطاب عدة نسخ، أرسلتها إلى زملائي مديري قصور الثقافة بالمحافظات المختلفة؛ كي أساعدهم على اتخاذ موقف مشابه في المستقبل فيما لو وصلتهم مثل تلك الأفلام.

حدث هذا في الفترة التي جاء فيها محافظ جديد لـ "كفر الشيخ" هو "إبراهيم بغدادي" المعروف بأنه كان ضد الفلاحين في قرية "كمشيش" حين كان محافظًا لـ "المنوفية"، فترة كثر فيها رجال المباحث بالقصر وخارجه يبثون الرعب في نفس كل من يدخله أو يقترب منه، وتصاعدت الحملة من منابر الاتحاد الاشتراكي مسعورة ضد القصر و"الفكر المستورد!". وطلب إبراهيم بغدادي ألا أقوم بتقديم برنامج جديد إلا بعد العرض عليه، وإن كان قد حاول أن يصور طلبه على أنه حرص منه على حماية القصر من بعض العناصر التي تريد استغلاله لأغراض معينة، وفي نفس الوقت أبدى ترحيبه بمقابلة سعد كامل في كفر الشيخ واستعداده للتعاون معه. كنا بصدد الإعداد لافتتاح عرض مسرحي جديد من بعض المسرحيات القصيرة عن المعركة، ورأيت من المناسب أن يلتقي الرجلان في يوم افتتاحه،

وتمَ ذلك فعلاً في ٢٤ سبتمبر، وفي لقائهما أبـدى المحـافظ كرما حاتميا إزاء القصر؛ فوافق على استكمال بناء المسرح وإضافة أجهزة السينما إليه، وعلى بناء دار سينما صيفيـة ملحقة به، بل وافق علـى تفـرُغ جميـع أعضـاء الفرقـة المسرحية – وهم يزيدون على الثلاثين للتمثيل– واعتمد لها ميزانية محترمة للصرف على الديكورات، والعروض، وبدا سعد كامل في قمة السعادة لذلك، بينما أخذت الأمر بتحفّظ.

وفي حجرته باستراحة المحافظ، وجد سعد كامل الفرصة، عندما أصبحنا وحدنا، ليلومني على ما فعلتـه بشـأن فـيلم صباح، ليس لمنـع عرضـه أو إرسـال الخطـاب إليـه، بل لإرسالي صورا منه إلى مديري القصور، فإن الأمر بـدا للجميع على أنه دعوة للتمرُد... وعبثًا حاولت إقناعـه بـأن القضية أخطر من مجرد خطـأ مكتبـي يمكـن أن أكـون قد تسرَعت فيه، إنما القضية هي السموم التي نبثها في نفوس وعقول الناس ونحن ندَعـي الارتقـاء بهـم، فقـد أصـرَ على أن أكتب نقدا ذاتيا لينشر في النشـرة التـي تصـدرها الإدارة العامة بالقاهرة وتوزَع على القصور.. وقال إن أحـد الأسباب الرئيسية لحضوره إلـى كفـر الشـيخ كـان هـذا

الموضوع، وإنه وإن لم يشك في دوافعي، بل ولعلـه يتفـق معي في الموقف من تلك الأفلام، فانه يرى أن هناك قـوى كثيرة يهمها أن تستغل هذا الخطأ الإداري وتصوره على أنه تصدُّع في الإدارة من الداخل، ولا يجـب أن نعطيهـا هـذه الفرصة.

فكرت طويلاً في الأمر، قـدَرت – مـن شـدَة اهتمـام سعد كامل به – مدى صعوبة الظروف التي يعانيها. وأخيرا قررت أن أكتب النقد الذاتي لسبب واحد؛ هو عـدم الرغبـة في تضييق الخناق على سعد كامل، لكني حرصت في كلمتي التي أرسلتها أن أؤكد اقتناعي بالدوافع التي دفعتني إلى منـع الفيلم وإرسال الخطاب إلى المدير العام، وأن الخطأ الوحيـد هو إرسال صور منه إلى مديري القصور.

لكن هذا الحدث كان قد ترك في نفسي ندبة عميقة.

***

(١٠)

بدأت طبيعة المحافظ الجديد تتضـح بعـد شـهر عسـل قصير... فوراء حرصه على التجرُّد من المظاهر المترفـة التي تعوَّد المحافظون على الظهور بهـا، وعلـى الظهـور بمظهر ديمقراطي بحرصه على حضور كافـة المناسـبات الجماهيرية والمشاركة فيها ببساطة، وعلى القيام بزيـارات مفاجئة لبعض مواقع العمل وأحيانًا وهـو متنكـر فـي زي مزارع معطينا الانطباع بأنه جاء ليرسي قواعد العدل بـين الرعية، كأنه عمر بن الخطاب قد بعِثَ حيا. وراء كل ذلـك هدف أساسي: هو أن يكسب ولاء الجمهور الساذج، ثُم يبسط سيطرته التامة على كل مراكز القوى بالمحافظة، اقتصـادية وسياسية، وتنفيذية، لكن بقبضة مختفية داخل قفاز حريـري؛ وقد تحقق له ذلك بسرعة فائقة.

لكن الأهم من ذلك هو تلك السرعة في تحديد موقفه من القوى الاجتماعية والسياسية المتصارعة في الإقليم: كان يقف في جانب كبار الملاك ضد الفلاحين، وفي جانب كبار تُجار الأسماك ببحيرة البرلس – التي تطل عليها المحافظة شمالاً – ضد صغار الصيادين الفقراء، وفي جانب تصفية المؤسسات التعاونية لصالح الرأسماليين.. باختصار كان ممثلاً أمينًا لمصالح البرجوازية، وكان من الطبيعي أن يتخذ موقف التربص من القصر، الذي جاء إلى كفر الشيخ ولا شكَ وهو يعلم عنه الكثير.

وأدركت أن الصدام آتٍ لا محالة.

في تلك الفترة استبدّ بي اليأس من جدوى أي محاولة لتحقيق الرسالة التي أتيت إلى كفر الشيخ مختارا لتحقيقها، وأصبحت الكلمات عن دور الثقافة في الارتقاء بالإنسان والسير به لتحقيق إنسانيته وحريته وإطلاق ملكاته الخلاقة وإثراء روحه، وفتح الطريق أمامه للمعرفة الصحيحة بالعالم والقدرة على تغييره لصالحه... إلخ.. أصبحت مثل تلك الكلمات شعارات جوفاء لا تعني شيئًا..

كنت في كل يوم أزور فيه قرية جديدة تصدمني حقيقة مرّة، عن بؤس الفلاح وجهله وانسحاقه، عن فظاظة أساليب القـوى الرجعيـة في استغلاله وسلب كل آدميته، عن القدرة الفذة على خنق كل جديد يولَد وتفريغ الشعارات من مضمونها الحقيقـي، وبناء أهرام من التضليل والزيف، قدرة لا تتورّع عن استخدام سلاح الدين والأخلاق، وعن استغلال جرح الهزيمة وتحميـل الجماهير الفقيرة لمسئوليتها، وعن ابتزازهم ماديا ومعنويا باسم المعركة وإزالة آثار العدوان، وعن محاصرة كل نبتة مخلصة تتمرّد على القديم بتهمة الشيوعية والزندقة والانحلال...

كان كل هذا هو المناخ الحقيقي للهزيمة.. وكم اختنقت به روحي.

ماذا يهمُّ فلاحا جائعـا مقهـورا – أي عبـدا حقيقيـا – من أفدنة من الأشعار وأطنان من الكلمـات؟.. هـل بوسـع الإنسان أن يفكر أو يشارك وهو مسلوب الحرية والإرادة؟... فإذا كنت لا أكتفي بذلك بل أعطيه جرعة مركزة من الأفيون في فيلم سينمائي مثلاً، فماذا أنتظر منه غير أن يقوم ويتركني عائدا إلى داره بمجرّد أن يضيء النـور فـي السـاحة؟... ولأمضغ كما أشاء وحدي، كلماتي الجوفاء. ألا أكون بـذلك مشاركًا فعليا في الجريمة؟!.

وماذا يفعله وحده – في مواجهـة كـل هـذا – شـاب في السابعة والعشرين كل ما يملكـه حبـا لبلـده، وحلمـا رومانسيا بالتغيير وبالثورة وبعالم أفضـل، وفكـرة مبهمـة للجماهير صاحبة المصلحة في الثورة؟

وذات يوم، جاءني الصديق محمد عفيفـي مطـر ومعـه خطاب إليَ ، يعتذر فيه عن عدم قدرتـه علـى الاسـتمرار في هذا العمل، الذي يستنزفه بلا طائل، وأنه كان يرغم نفسه على المواصلة معي فيه لاعتبـار واحـد: هـو الحـرص على صداقتنا، وتقديره لحاجتي إلى مساندته، إلا أنه لم يعـد قادرا على الاستمرار في ذلك[5] .

وأيا كانت الدوافع الحقيقية لانسحاب عفيفي مطر في هذا الظرف بالذات فقد تفاقم إحساسي بالوحدة.. والعجز.

وشيئًا فشيئًا بدأ الفنان في داخلي يطل برأسه، متمردا على المسئولية العبثية التي ينوء بها قلبه، ويهفو إلى التحرُّر منها، للتفرُّغ للعمل الذي يعرفه ويستطيع أن يبدع فيـه، ويتحمـل مسئوليته وحده، وهو الفن. ودبَ الصراع في داخلـي بينـه وبين الإنسان المسئول أمام اختياره الحر لقضية يؤمن بهـا وبضرورة تحقيقها.

انتصر الفنان في ذلك الصراع، وانتهى الأمر بأن كتبت استقالتي وذهبت بها لمقابلة سعد كامل. كان ذلك في قرية "سندبيس" بمحافظة القليوبية، خلال مهرجان ثقافي وترفيهي ساهمت فيه قوافل الثقافة من عدة محافظات، وبينما كان المسرح يموج بالأضواء وبرقصات فرقة "أبو الغيط" للفنون الشعبية وتضجُ الساحة بتصفيق المشاهدين الذين جلس معظمهم على الأرض، كنت أسير مطرقًا بجوار سعد كامل، بالقرب من الحقول المظلمة الصامتة، لا أعرف كيف أبلغه بقراري، أستمع إليه يحدثني عن معاناته وهو ينحت في الصخر طريقًا تستمرُ فيه قافلته، ملقيا باللوم على عجز الإمكانيات وعلى البيروقراطية المتفشية في جهازه الإداري.

قلت له، مشفقًا من وقع كلماتي:

- الحقيقة أنني أشعر بأن كل هذا عبث.

توقف عن السير ويداه معقودتان خلف ظهره؛ فواصل مشيرا إلى المهرجان خلفنا:

- لا أفهم ما معنى كل هذا الضجيج... أمن أجل هذا ننحت في الصخر؟... من أجل أن نعمل مهـرجين أو متعهدي حفلات ترفيهية؟... مـن هـو السـيد الحقيقي الذي نخدمه؟ إنه بالتأكيـد لـيس هـؤلاء البؤساء المكوَّمين على التراب يحملقـون ببلاهـة، كالمساطيل، فليس هذا ما يحتاجونه وإن تلذذوا بـه للحظات.

يجب أن نعترف بالحقيقة: وهي أننا نخدم أولئـك الـذين يتربعون فوق الكراسي الوثيرة في المكاتب المكيفـة نسـدي إليهم خدمتين: الأولى هي إشباع غـرورهم؛ لأن كـل هـذا (النشاط) سوف ينسب إليهم منشورا على أعمـدة الصـحف بجوار صورهم، مع بعض التصريحات عن الثورة الثقافيـة، الثانية هي المشاركة في تخدير هؤلاء التعساء بما نقدمه إليهم من أفيون باسم الثقافة...

أليست هذه هي الحقيقة؟

خيم علينا الصمت لحظات خُيِّـل إليَّ أنها بـلا نهايـة، وسعد كامل يسير مطرقًا ويداه معقودتـان خلـف ظهـره، وأخيرا توقف وواجهني في هدوء:

- لا، ليست هذه الحقيقة.. الحقيقة أن هـؤلاء الـذين أشرت إليهم في المكاتب المكيفة لا يعنيهم أي شيء من ذلك، بل على العكس أن مـا يعنـيهم هـو أن يتوقف كل شيء وأن يعمّ الصـمت، فـلا شـيء يزعجهم مثل تلك التجمعات.. أما عن التصريحات الصحفية والصور فسوف تجد مكانها دائما حـدث شيء أو لم يحدث.

إنك لا تتصوّر الحرب، الحرب الحقيقية التي أواجهها كل يوم على كل المستويات لكي يسـتمرّ هـذا. إننـي أوافقـك على هبوط مستوى المواد التي تُقدَم، لكنها البـديل الوحيـد المتاح عن التوقف نهائيا، ومع ذلك، فهنـاك شـيء خطيـر لا أدري كيف أغفلته، مع أنك تشارك في صنعه... انظر...

وأشار إلى خشبة المسرح التي كنا قد اقتربنا منها؛ حيـث كانت فرقة من العازفين الشعبيين علـى النـاي والـدفوف والمزمار والصاجات النحاسية، تصاحب بعزفها عم حسـين السخاوي وهو يغني موالاً.. قال:

- أليسـت هـذه الفرقـة التـي أحضـرتها معـك في القافلة؟

- نعم.
- من أي قرية؟
- عم حسين السخاوي من قرية سخا، أما العـازفون فمن قرى مختلفة بـ "كفر الشيخ".
- ألا تجد في ذلك شيئًا خطيرا؟.. هؤلاء المجهولـون في القرى المنسية.. البؤساء المساطيل كما تسميهم. ها هم قادرون على أن يغنوا ويرقصوا ويقدموا لنا فنًا حقيقيا من إبداعهم.. إنها شهادة حقيقية على أنهم موجودون، على أن الجـوع والظلـم والهزيمـة لم تستطع أن تقضي عليهم أو تنال من أرواحهـم.. لو كان كل مـا نفعلـه هـو أن نشـجعهم علـى الاستمرار، أن نغذي الجوانب الإيجابية الأصيلة في فنونهم ونعمل على تطويرها، أن نخلق في كل قرية فرقة غنائية أو مسرحية لكان هذا عمـلاً مجيـدا؛ لأنهم لن يكونوا مجرد مستهلكين سلبيين لثقافة نأتي بها إليهم حتى ولو كانت ثورية، بـل سيصـبحون مشاركين لنا في خلق الثقافة التي يحتاجونها.

قلت:

- لا أتكلم فقط عن المبدعين، بل أعني أيضا الجماهير... كيف لهم أن يشاركوا بشيء وهم في الحضيض؟.. إن ما يحتاجونه الآن ليس هو الفن...

قاطعني قائلاً:

- أعرف أنهم يحتاجون الخبـز أولاً، لكـنهم بـنفس الدرجة يحتاجون الحرية، والفـن وسـيلة هامـة للحرية؛ لأنه إطـلاق للوجـدان المكبـوت، الفـن الحقيقي حرية.

وصمتنا... رحت أتابع صوت حسـين السـخاوي وهـو يجوس في رقة موجعة وسط غابة من الأحـزان، فيلمـؤني إحساسا بالوحدة والأسى، وحنينًا إلى الاندماج فـي الجمـوع الخاشعة المكوَّمة، في نفس الوقت، وقفز إلى خاطري فجـأة "سعد راجح" الميكانيكي ذو الملابس المشحمة حـين فاجأنـا في تلك الليلة الباردة، في أول عهدي بقصر الثقافة بصـوته الشامخ، الذي اقتحم به ثرثرة الأفندية فاستولى عليهم.

لقد عدت إلى كفر الشيخ في تلـك الليلـة صـامتًا، دون أن أخبر سعد كامل بأن في جيبي ورقة... تحمل استقالتي.

(١١)

بدأنا حملة لجمع التراث الفلكلوري مستعينين بالقافلة، أمكننا الحصول على تسجيلات مدهشة لعدد كبير من المواويل والأغاني والألحان الشعبية من قرى مختلفة مثل: سخا، مسير، برج البرلس، تعبر عن الأفراح والأحزان، وتعكس تأملات مشبعة بحكمة القرون، وإن كان فيها جانب استسلامي متشاكي، إلا أنها في جوهرها لا تدعو لليأس، بل يمكن أن نلاحظ فيها عرقًا دفينًا للمقاومة للظلم والشر والقدر الغاشم، يتمثل في الصبر، وفي هجاء الخسيس والغادر والجبان، لكن هذا العرق يلمع من حين لآخر بوميض الأسرار والتحدي، وبشوق هائل للحياة يتجاوز كل كروبها وقد تركت الهزيمة بالطبع أثرا واضحا في إضافة كمية من الأحزان والمرارة عليها.

وتصادف في تلك الفترة وجود خبير روماني في الفنون الشعبية بمصر هو "تيبيرو الكسندرو" جاء في مهمة لتسجيل الفلكلور المصري بدعوة من وزارة الثقافة.

وحين حضر إلى كفر الشيخ أذهلتـه التسـجيلات التـي جمعناها؛ مما حدا به للقيام بجولة في أنحاء المحافظة خـرج منها بمجموعة من الألحان، ضمها إلى روائع التراث التـي جمعها من محافظـات أخـرى وطُبِعـت بـ ـ "رومانيـا" على أسطوانة شهيرة.

وقد صرّح بأن ألحان كفر الشيخ من أجمل ما جمعه خـلال جولته. لكن كل ذلك لم يكن يقنعني بجدوى الاسـتمرار، وقـد أخذت أصداء كلمات سعد كامل تخفت وسط ضجيج الحفـلات الساهرة التي راحت الثقافة الجماهيرية تقيمها في كـل مكـان متذرعة بأية مناسبة دينية أو غير دينية لتقيم السرادقات التـي تضجُ بصخب الفرق الشعبية من الهواة والمحترفين على السواء للغناء والعزف والرقص، حتى أوشك كل ذلك أن يصبح الهدف في حد ذاته، وبعدنا عن المهمة الأساسية للثقافة في رأيي.

وربما كان لجهاز الثقافة الجماهيرية عذره في ذلك؛ وهو حرصه على إثبات وجود وضـرورته علـى الصـعيدين: المسئولين والجماهير الشعبية في المـدن والريـف، حتـى يستطيع أن يقف على قدميه، ثُم يطالـب الدولـة فـي ثقـة بمضاعفة إمكانياته لتحقيق خططه الثقافيـة الطموح.

إلا أنني أقرر هنا – للحقيقة – أن الإدارة العامة المركزية لم تحاول إلزامي بأية خطة في هذا المجال أو في غيره على الإطلاق، بل إن العكس هو الصحيح، فقد كان سـعد كامـل يؤكد باستمرار على ضرورة تميز كل محافظة بشخصـيتها الخاصة من خلال أنشطة وبرامج قصرها الثقافي، الذي عليه أن يختار ويستنبط ويبدع الأشـكال والأسـاليب المبتكـرة، مستلهما الطابع الأصيل لروح المحافظة، بل لقد كان يطمـح إلى ما هو أبعد من ذلك: إلى أن يـذبل بالتـدريج الجهـاز الإداري للثقافة الجماهيرية بالقاهرة حتـى يتلاشـى، وذلـك عندما يأتي الوقت الذي يصبح فيه قصر الثقافة بكل محافظة قادرا على رسم سياسته وإدارتهـا بنفسـه، بأبنـاء إقليمـه وإمكانات إقليمه، وتمويل إقليمه إن أمكن...

وكان الواقع الخاص لـ "كفـر الشـيخ"، بكـل زخمـه وتناقضاته، يفرض البحـث عـن أشـكال جديـدة للتعبيـر عنه ومواجهة سلبياته ودفع قوى التجدُّد فيـه، ولمـا كانـت المحافظة خصبة بالمواهب في مجال التعبير الأدبي والفكري والنقدي، فقد اتجه التفكير إلى خلق منبر جديد للفكر والفـن والرأي، يستطيع أن يصل إلى الناس ويؤثر فـيهم ويؤصـل

للقيم المنشودة ولا يتبدَد أثره مع الأثير، وكانت نتيجة التفكير والمناقشة والعمل هي إصدار مجلة صغيرة من القصر تحمل اسم "طليعة كفر الشيخ".

وكنت في تلك الفترة قد التقيت بالدكتور علـي النـويجي ومجموعة من مثقفي مدينة دسوقي الذين ذاعـت شـهرتهم بأنحاء المحافظة، وشجعني حماسهم على مد نشاطنا الثقـافي إلى دسوق التي أدركت أنها مركز حضاري عريق وميـدان خصب بالطاقات والتناقضات على السواء، واستطعت ضـمَ اثنين من تلك المجموعة إلى الفرقة المسرحية، أيقنت أن كلاً منهما شعلة متقدة، سواء على مستوى الوعي أو على مستوى العمل والحركـة الجماهيريـة، فضـلاً عـن اسـتعدادهما المسرحي: هما طلعت الخليفة والسيد أبـو اليزيـد، وأمكـن انتدابهما من المحافظة للعمل بالقصر، وكانت مبادرتهما مـن العوامل الهامة في دفع المجلة إلى حيز التنفيذ.

وأصاب النجاح الجماهيري الذي حققه العدد الأول البدائي، حيث طُبِع على لاستنسل، وبالرغم من صفحاته التي لا تزيد عن العشرين، ومن عدد نسخه التي لا تزيد عن المائتين، فقد تخاطفته الأيدي بلهفة في كل من كفر الشيخ ودسوق، وصارت كل نسخة تُتداول بين عشرات الأيدي، وتثير من ردود الأفعال ما فاق التصوُّر! كان العدد يحتوي - بالإضافة إلى باقة من المواد الأدبية والفنية - على عدة دراسات خطيرة عن واقع كفر الشيخ، تكشف النقاب عن أبعاد التخلف والاستغلال فيه، إلى جانب بعض الدراسات الفكرية الجادة والتحقيقات الصحفية عن بعض مرافق المحافظة.

وهبت الرياح عكس الشراع الوليد...

لقد انتفضت كالملسوعة كل الأجهزة بالمحافظة، سياسية وتنفيذية، وبدأت المتاعب التي كنت أتوقعها مع إبراهيم بغدادي - المحافظ الجديد - فقد عقد اجتماعا عاجلاً دعا إليه كل المسئولين عن الأجهزة التنفيذية، هوجمت فيه بضراوة طبعا، وانتقل الهجوم إلى سياسة القصر عامة، وانتهى الاجتماع بقرار أصدره المحافظ بتشكيل لجنة عليا للإعلام

والثقافة بالمحافظة مهمتها الإشراف والتخطيط لسياسة أجهزة الإعلام – ومنها القصر – على ألا أقوم بأي برنامج إلا بعد عرضه على اللجنة؛ أي إنها لجنـة تقـوم بـدور الوصـي والرقيب في نفس الوقت.

والطريف أن أعضاءها لـم يكونـوا غيـر المسـئولين عن الزراعة والأوقاف والتموين والصحة والإسكان، يضافُ إليهم بالطبع صقور الاتحاد الاشتراكي.

كان معنى هذا القرار ببساطة وضعنا في ثلاجة، ولم أجد لي حاميا من جبروته إلا عدوي اللـدود: وهـو المركزيـة البيروقراطية، فقد استندت إلى أن برامج القصـر وخططـه تأتي من الإدارة العامة بالقاهرة وليس للمحافظ الحق رسـميا في فرض الوصاية على جهاز يتبع وزارة الثقافة التي تدخل في نطاق اختصاصات الحكم المحلي؛ إذ إن كـل فروعهـا بالإقليم تتبع لإدارتها المركزية بالقاهرة.

واستشاط المحافظ غضبا، وراح يبحث عن وسيلة ينفذ بها قراره، في الوقت الذي واصلنا فيه برنامج القصـر العـادي وكان شيئًا لم يكن...

لكننا فوجئنا بعد أيام بقرار من المحافظ بإلغاء انتداب كل من طلعت الخليفة والسيد أبو اليزيد من العمل بالقصر.

تلقينا الأمر بابتسامة، وواصلنا العمل بهدوء، وبدأنا نستعد لإصدار العدد الثاني من "طليعة كفر الشيخ"..

وفي نفس الوقت بدأنا نتجه إلى التوسع بالنشـاط خـارج العاصمة بشكل أكثر استقرارا واستمرارا من أسلوب القافلة؛ وذلك بإنشاء فروع للقصر في بعض مراكز المحافظة تلبيـة لمطالب الأهالي لنا، وبدأنا بمركز "فوه" الذي لمسـنا لـدى رئيس مجلس مدينته استعدادا لتقديم مكان يقـام بـه مركـز الثقافة، وكانت البداية هي المكتبة...

ونقلنا إلى هناك عدة مئات من الكتب التي حصلنا عليهـا مؤخرا من القاهرة وموظفًا واحدا كمشرف علـى المراكـز والمكتبة، وأتاح لنا ذلك أن نقدم بالمركز عروضا مسـرحية وندوات ثقافية لبت احتياجا ضروريا لأبناء المدينة.

وواصلت الفرقة المسـرحية نشـاطها بكثافـة؛ فأعـدّت برنامجا مسرحيا جديدا من أربع لوحات مسـرحية تنطلـق جميعا من وجهة نظر الشعب في الصمود والنضـال ضـد العدوان والإمبريالية وضد أشكال الاستغلال والفسـاد التـي تنخر في الأجهزة المتحكمة في مصالح الجمـاهير، وكانـت جميع اللوحات قائمة على طاقات محليـة تأليفًـا وإخراجـا وديكورا وتمثيلاً، فيما عدا لوحة واحدة هي "حكاية ياسـين" التي ألفها خصيصا للفرقة الشاعر عبد الـرحمن الأبنـودي، وكان قد وضع نفسه – بشعره وشعبيته الواسـعة – جنـديا داخل الكتيبة الثقافيـة بـ "كفر الشيخ" على امتداد التجربـة؛ فأعطاها الكثير وتعلم منها الكثير...

وصممنا على أن نبدأ بهذا العرض من خـارج عاصـمة المحافظة، فرحنا نطوف به مدن دسوق وبيلا... وأخيـرا... كفر الشيخ.

* * *

(١٢)

كان هذا الفريق من الشبان الذي بنيت علـى أكتافـه تلـك التجربة المسرحية: صورة نادرة للبطولة الصامتة والقدرة على التضحية، ليس فقط بالوقت أو الجهد المضني دون أي مقابـل، بل في كثير من الأحيان – وقبل أن يقَام قصر الثقافة– التضحية حتـى بأثـاث البيـت وقـوت الأولاد والاسـتقرار العائلي من أجل تقديم عمل مسرحي، ولم يكن لهـذا الفريـق خلال كفاحه الطويل قبل وصولي إلى كفر الشـيخ ميكـانيكي مسرح أو عامل إضـاءة أو إذاعـة أو ديكـور أو مكيـاج، بل كانوا جميعا هم هؤلاء العمـال، ولتـدهش عنـدما تـرى عطية عويس الذي يقوم بدور الباشا الطاغية بملابسه الفخمـة المنشاة وهو وراء الكواليس يحمل على كتفه قطـع الـديكور. أو عندما ترى "فاروق الفرا" الفنان التشكيلي الذي يقوم بـدور شيخ البلد بكل غطرسته، وهو بين الفصول ملطخ بالألوان التي يجهز بها الديكور، ويحملها بنفسه أيضا إلـى مكانهـا علـى المسرح؛ إذ إنه نفسه مهندس الديكور ومنفذه... أو عندما تشاهد جميع أعضاء الفرقة يحملون على ظهورهم وأكتافهم القواعـد الخشبية الضخمة للمسرح لينقلوها إلى القرى والمراكـز التـي يعرضون بها، مما جعل لهم شعبية ضخمة في كل مكان.

وفي أحد أيام الشتاء (وشتاء كفـر الشـيخ شـتاء كـافر في قسوة برده وغزارة أمطاره؛ مما يجعـل الـدم يتجمـد في العروق)... حضر الفنان المسرحي الكبير حمدي غيـث ليشاهد الفرقة في إحدى حفلاتها، ونظرا لأن المسرح لم يكن قد انتهى إعداده، فقد حجزنا دار السينما الوحيـدة بالمدينـة، وكالمعتاد كانت تذاكر الحفل كلها دعـوات مجانيـة، لكـن الأمطار في ذلك اليوم لم تكن قد توقفت لمدة ثلاثة أيام، وكان حمدي غيث يبدي لي طول الوقت شكوكه- وأسنانه تصطك من البرد وهو داخل معطفه الثقيل – في أن يحضر مـواطن واحد إلى الحفلة، وكنت أطمئنه إلى عكس ذلك وفي قـرارة نفسي أضطرب قلقًا وخجلاً من النتيجـة المحتومـة، لـيس من أجل حمدي غيث، وإنما من أجل الأولاد المساكين خلف الكواليس، الذين هدَّهم التعب طوال عدة أسابيع من أجل ذلك اليوم الذي سيراهم فيه سيد المسـرح المصـري الحـديث في نظرهم، فكيف يؤدُّون أدوارهم أمامـه والصـالة خاليـة تماما؟ سوف تكون صدمة مدمرة بالنسـبة لهـم... وبقينـا بالاستراحة حتى لم يبق على رفـع السـتار غيـر دقـائق، كي أضمن وصول أكبر عدد من الناس إلى المسـرح قبـل

وصولنا.. وفي طريقنا إلى مكان الحفل كانت الشوارع مقفرة من أي مخلوق والأمطار لا تتوقف لحظة، وعنـدما وصـلنا وجدنا الصالة والبلكون خاليين تماما.

ونفخ حمدي غيث في يديه المتجمدتين وقال:

- ألم أقل لك؟... من ذلك المجنـون الـذي يخـرج من بيته في يوم كهذا ولو كان الذي سـيمثل هـو حمدي غيث نفسه؟... هيا نعود إلى الاستراحة.

ورجوتـه أن يصـبر قلـيلاً، ورحـت أعلـل الأمـر بأن الإحساس بالزمن مفقود في الأرياف، ولا بأس أن تصبح الساعة السادسة بالنسبة لهم السادسة والنصف.

وما هي إلا لحظات حتى بدأت بشائر الجمهـور تتـوالى على السينما، ثُم تتزايد بمعدَل سـريع، والصـفوف تمتلـئ تدريجيا بنظام عجيب، ويشيع الدفء في القاعة شيئًا فشيئًا.. ولم يمضِ ربع ساعة حتـى كانـت السـينما قـد امـتلأت عن آخرها، وحمدي غيث في ذهول يضرب كفًا بكف.

وبدأ العرض وسط خشوع تام لما يقرب من ألف مواطن في الصالة والبلكون، وعندما انتهى حوالي منتصف الليـل، وحين توقفت أكف الجمهور عن التصفيق وتهيـأ للخـروج، كان حمدي غيث هو الوحيد الذي لم يتوقف عن التصـفيق، ثُم انطلق يلقي كلمة مؤثرة حارة أمـام الجمهـور، جعلـت الجميع يتوقفون مشرئبين نحوه لعدة دقـائق، لا أذكـر الآن كلماتها، لكن الذي أذكره جيدا: تلك الـدمعات التـي كانـت تترقرق في عيني حمدي غيث.

بدأت الفرقة في أوائل ديسـمبر ١٩٦٧ إعـادة إخـراج مسرحية "أدهم الشرقاوي" بشكل جديد لعرضها خارج الإقليم، في مدينة دمنهور، على أن نفتتح بها بعد ذلـك: المهرجـان الثقافي الذي أزمعنا إقامته في أوَّل يناير ١٩٦٨ بـ ـ "كفـر الشيخ"؛ احتفالاً بمرور عام على إنشاء القصر.

وبينما كان أعضاء الفرقة مستغرقين في تدريباتهم، ولم يبقَ على العرض غير يومين، وصلهم نبأ وفاة زميلهم "طلعت الخليفة"... لقد سقط فجأة بالسكتة القلبية وهو مفعم بالحياة والوعود، بعد يوم مرهق من العمل. كان طلعت رفيقًا في الرحلة الطويلة، أخًا وصديقًا ومعلمًا، يجوب القرى بدراجته البخارية مجمعا حوله قلوب كل من يتعامل معه – فلاحين ومهندسين وطلبة – فقد كان مهندسا زراعيا، حتى الأطفال كان يعرف كيف يأسر قلوبهم؛ ذلك أنه كان يملك قلب طفل، وهو وإن كان عملي التفكير، فقد رضخ لإرادة أهل مدينته دسوق في أن يجعلوه خليفة لسيدي إبراهيم الدسوقي كوريث لوالده الخليفة المقدَّس... وما أطرفه وهو يمتطي الحصان المطهم في يوم المولد الكبير وسط الآلاف المؤلفة، في موكب هائل مهيب.. ثُم وهو يحاول أن يقنع أهله بعد ذلك – وأعماقه تفيض بالتعاسة وإن احتفظ وجهه ببسمته الدائمة – بعبث كل ذلك وما فيه من دجل.. ثُم يضحك في النهاية من قلبه على نفسه وعلى كل شيء..

وها هو يذهب إلى الأبد في نكتة قدرية عشـواء وبـاردة أسطورية مذهلة وضع كل من أعضاء الفرقة على إحساسـه طبقة عازلة، حتى جاء موعـد العـرض، وسـافروا إلـى دمنهور، وراح كل يؤدي دوره وكأن شيئًا لم يكن.. ومـا إن ينتهي الدور حتى يندفع وراء الكواليس، منفجرا بكل كيانـه في بكاء مرير..

***

أقمنا بالقصر حفل تأبين لطلعت الخليفة يوم ١٣ ديسـمبر ١٩٦٧ حضره الشاعر عبد الرحمن الأبنـودي الـذي كـان صديقًا لـ "طلعت"، وقد كتب قصيدة يرثيه فيهـا، واكتظـت قاعة القصر بالجمهور الذي تجاوز ثلاثمائة شخص، وأثنـاء إلقاء الأبنودي لقصيدته، والقاعة مسربلة بالخشـوع، دخـل إبراهيم بغدادي في هدوء واتخذ لنفسه مكانًا بين الصفوف.

بعد لحظات دخلت سيدة شابة تتشح بالسواد، يدل مسلكها على أنها غريبة عن المدينة، ووجدت لها مكانًا فـي آخـر الصفوف.

انتهى الأبنودي من قصيدته، وحياه الجمهـور بحـرارة، وقبل أن أقدم الشاعر التالي، وجدت أن من الذوق أن أحيـي الضيفين اللذين حضرا أثناء إلقاء القصيدة، وبـدأت بتحيـة المحافظ، وانتظرت لحظات، لكن شخصا واحدا لـم يصـفق تحية له، فاستأنفت، معرفًا الجمهور بأن السـيدة المناضـلة "شـاهندة مقلـد" زوجـة شـهيد الإقطـاع فـي كمشـيش "صلاح حسين" ورفيقة نضاله، قد جاءت لتشارك في تـأبين طلعت الخليفة. وحدثت همهمة فـي القاعـة وراح الجميـع يتلفتون بحثًا عنها، وما إن تعرَفوا عليها حتى ضجت القاعة بتصفيق حاد استمرَ لدقائق؛ ذلك أن صلاح حسين كان رمزا غاليا للثورة ضد الإقطاع، وفي بلد مثل كفر الشيخ يوجد فيه للإقطاع تاريخ ودعائم. يصبح لهذا الرمز معنى عميق.

ولم يكفوا عن الصفيق إلا بعد أن قام البعض باصطحابها من آخر القاعة إلى المنصة وبدأت تحيي الجمهـور بكلمـة قصيرة أشادت فيها بالفقيد وذكرت لقاءه بفلاحـي كمشـيش وكفاحه من أجل قضية الاشتراكية في بلده.

استتبَ الهدوء أخيرا، وعيني على وجه المحافظ، ألاحـظ بأي إرادة يخفي انفعاله الذي أحسست بأنه يغلي بداخله.

وقدَمت إلى الجمهور شاعرا من أبناء دسوق الموهـوبين هو "عبد الصبور منير" [٧] ألقى قصيدة عـن الشـهداء فـي مقاطع متتالية: من "نجوين فان تروي" – الشهيد الفيتنـامي، إلى "ناظم أبو غزالة" الشـهيد الفلسـطيني، إلـى "طلعـت الخليفة"... وما إن انتهت القصيدة حتى غادر المحافظ القاعة في صمت، وملامحه تحمل النذير.

***

(١٣)

وفي الصباح حضر المحافظ إلـى القصـر، ولـم أكـن موجودا؛ فأعلن أمام كل العاملين استياءه مما حدث في الليلة السابقة، وهدَّد بأنه سيكون له حساب مع القصر، وقال إنـه يعرف أن هناك فئة معينة توجه نشاطه وجهة معينة تخدم بها جهة ما. ثُم طلب أن يوافيه القصر بكشف شامل بكل من فيه من موظفين سواء منهم الدائمين أو المنتدبين أو المشـرفين في الفترة المسائية.

وفي اليوم التالي اُستُدعِيت لمكتـب المحـافظ؛ لحضـور اجتماع طارئ للجنة العليا للإعلام والثقافة.

دخلت قاعة الاجتماع؛ فوجدتها ممتلئة بجميـع أعضـاء اللجنة من رؤساء المصالح الحكومية وبعض قيادات الاتحاد الاشتراكي، ولم يكن المحافظ قد حضر بعد، ورغـم أننـي فهمت أن أحدا منهم لم يبلَغْ بسبب الاجتماع، إلا أن نظراتهم الصامتة نحوي كانت توحي بأن الأمر متعلق بي، كما كانت ملامحهم تعكس إحساسهم بأنه أمر جلل.. وبعد دقائق دخـل المحافظ وتصدَّر المائدة.

بدأ الاجتماع باعتذار عن دعوته الطارئة لنا دون جـدول أعمال سابق، لكن ما حدث أمس بقصر الثقافة كان يستوجب سرعة النظر في سياسته، ووضع ضوابط وأسـس جديـدة واضحة للعمل به، وأخذ يعـرض بشـكل عـام – دون أن يتعرَض لذلك الذي حدث أمـس، والـذي أعتقـد أن أحـدا من الحاضرين لم يشهده؛ لأن أقدامهم لا تطأ عتبة القصـر– أخذ يعرض للرسالة التي يرى أن القصر يجب أن يقوم بها، وتتلخص في أن يعنَى بإشباع وقت الفـراغ لـدى الشـعب بالمواد الفنية والثقافية البحتـة. دون أن يـزجَ بنفسـه فـي الأنشطة السياسية، ليس معنى ذلك ألا تكون له صلة بالمسائل السياسية ولكن ذلك يجب أن يكـون فـي إطـار الأهـداف الرسميـة العامة للدولة، لا مانع مثلاً من إذاعة خطب السيد الرئيس، ومن تعريف الشعب بواجباته وإقناعه بـأن يقبـل التضحية بكل شيء راضيا من أجل المعركة، وإن كان هناك من يتكلم في مثل هذه الموضوعات فيجب أن يكون من أبناء المحافظة، وأن يكون على مستوى المسئولية.. ثُم وجه إلـيَ نظرة ذات مغزى وقال:

- هل هذا الكلام واضح؟

سألته أن يوضح ما الذي حدث بالأمس مما استدعى هـذا الاجتماع فقال:

- أنت تعرف جيدا ما الذي حدث.

أصررت على أنني لا أعرف شيئًا فيما حدث يناقض مـا ذكره الآن، وذكرته بأن برنامج الأمس كان أمسية شـعرية، فهل معنى هذا أن سيادته ضد الأمسيات الشعرية؟

قال وقد بدأ يفقد هدوءه:

- أمسية شـعرية، أم حفلـة لتـأبين الشـيوعيين؟.. قد نتغاضى عن تأبين شيوعي مـات مـن أبنـاء المحافظة، وعن أنكم جعلتم منه شـهيدا (بالعافيـة) لكن ماذا نقول في تمجيدكم للشيوعيين الفيتنـاميين أيضا؟.. هـل خـلا تاريخنـا مـن الشـهداء؟.. في الوقت الذي تُحتَل فيه أرضنا ويستشـهد آلاف المواطنين، لنمجد من ماتوا في فيتنام؟... أسمح لي أن أقول لك إن ما سمحت به بالأمس يعـدُّ خيانـة وطنيـة..

تكهرب جوُّ القاعة بعد الجملة الأخيرة، حتى لقد أحسست – من وجوه الحاضرين في لحظات الصمت العميقـة التـي أعقبتها – توجسا بهبوب العاصفة. أتاح لي المحافظ باتهامـه إياي بالخيانة الوطنية، الفرصة للانتقال من موقـف الـدفاع إلى موقف الهجوم، ولقد استفدت تماما من الفرصة: فحملته، مستشهدا بالحاضرين، مسئوليتها، واحتفظت بحقي في اتخاذ كافة الإجراءات التي تكفل ردَّ الاعتبار إليَّ!

قال المحافظ محاولاً تخفيف وقع اتهامه:

- لست أقصدك وحدك، بل إنني أعتبر نفسـي غيـر وطني؛ لأنني جلست أستمع إلى هذه القصيدة.

واصلت الهجوم قائلاً بأننا إذا اتخذنا من مقيـاس السـيد المحافظ في الحكم على وطنيـة الناس – بأن كل من يمجـد بطولة شعب فيتنام يعدُّ خائنًا وطنيـا – فإننـا سـوف نجـد أن جمال عبد الناصر هو أوَّل الخونة الوطنيين؛ لأنه لا يكف في خطبه عن الإشادة بكفاح كل الشـعوب المناضـلة ضـد الاستعمار حتى بكفاح الشعب الأمريكي نفسه.

ونجح الهجوم في إرغام المحافظ على التراجع سـريعا، فنفى أنه اتهمني بالخيانة الوطنية، وإنما ما قاله إن ما حـدث هو "عدم وطنيـة"، وإن ما كان يعنيه هو أن تركيزنا يجـب أن ينصبَ على كفاحنا نحن وشهدائنا نحن، ليس في مصـر وحدها بل في الوطن العربي كله. فذكرتـه بـأن القصـيدة – وبالمناسبة فهي لشاعر من أبنـاء المحافظـة – تتضـمن تمجيد الشهداء الفلسطينيين.

وحوصر المحافظ تماما؛ فاندفع في غضـب قـائلاً إنـه يعرف كل ما يدور بالقصر ولن يسمح باسـتمراره، وإننـي أعمل على تحديه، بفتح القصـر علـى مصـراعيه كـوكر للشيوعيين من كفر الشيخ وخارجها، وإن ما حدث بـالأمس دليل على ذلك. وسألني وهو ينتفض من الغضب:

- ألم تدعُ شاهندة بالأمس إلى القصر؟
- كلا. لقد أتت من تلقاء نفسها لتشارك فـي تـأبين طلعت الخليفة.
- وكيف عرفت هي أنكم ستقيمون حفلة تأبين لـه؟.. بل كيف عرفت به أصلاً؟

- لا علم لي بذلك، لقد نُشِرَ النعـي فـي الصـحف على أية حال.
- ألا تعرف أنها كانت تشهر بي في المنوفية وتعلـق إعلانات تهاجمني فيها؟
- هل أفهم أن هذه هي المشكلة الآن؟
- دق المنضدة بعنف وهو يصرخ:
- المشكلة هي أنك تتصوَّر أن بإمكانك أن تتحدَّانـي، وأن الشيوعيين يمكن يتغلغلوا في هذا البلد.
- أحبُّ أن توضح لي من هم الشيوعيون.
- قل لي أنت.
- أعتقد أنهم ببساطة الذين يعملون من خلال تنظـيم حزبي فهل تعتقد أن في مصر كلهـا مثـل هـذا التنظيم؟
- الشـيوعيون الآن فـي مراكـز قياديـة ضـخمة في الدولة؛ لأنهم تركـوا هـذه المبـادئ والـذي لم يعجبه ذلك منهم ترك البلد وخرج... أما هـؤلاء الذين يحضرون عندك فهم ليسوا شيوعيين.... بل متشيعين.

- وأنا أؤكد أنهم قبل أي شيء وطنيـون... يحبـون بلادهم ويؤمنون بالاشتراكية وبقيادة عبد الناصـر، وأن هناك عناصر معينة تروج ضد القصر؛ لأنـه يمثل باتجاهه التقدمي خطرا عليها.

- ومن هي هذه العناصر؟

- الذي لا يجدون مصالحهم مع الاشتراكية... واسمح لي أن أقول إنك أيضا سـاهمت فـي خلـق هـذه الحساسية ضـد القصـر بإلغـاء انتـداب اثنـين من أنشط العاملين عندي دون أن تأخذ رأيي، بحجة أنهما شيوعيان.

- أنا لم ألغِ انتدابهما لهذا السبب، بل لأن اتجاهي أن ألغي كل انتدابات الموظفين الذين عندك... ولـتعلم أنني قادر على أن أبعدك عن كفر الشيخ أيضا.

ابتسمت قائلاً في هدوء:

- بالنسبة لي فيستوي عندي أن أكون في كفر الشـيخ أو في أي مكان آخر؛ فليس لي مصلحة شخصـية في كفر الشيخ، ليس لي فيها غير حقيبتي، يمكننـي أن أحملها وأسافر في أي وقت. لكن السؤال هـو: هل تريد أن تهدم القصر؟

- أنا على استعداد لأن أهدمه إذا كان سيخلق تيارات وصراعات فكرية بالمحافظة، ثُم إن علـى وزارة الثقافة إذا أرادت أن تفتح قصرا للثقافة أن تـزوده بالموظفين والإمكانيات من عندها.

استشعرت من تصعيده للهجوم تجاه وزارة الثقافـة، أنـه قرّر أن ينسف كل جسور العودة، وقد أمدّني ذلك بجرأة من لم يبق له ما يخاف عليه فقلت:

- هل تعتقد أن وزارة الثقافة عنـدما تفـتح قصـرا في إحـدى المحافظـات تفتحـه لحسـابها؟... إن من البديهي أنها تفتحه لمصلحة شـعب المحافظـة وليس لحسابها أو لحساب المحافظ.
- لكن القصر ملك للمحافظة
- إنه في الحقيقة ليس ملكـًا للمحافظـة أو الثقافـة بل هو كملـك لشـعب المحافظـة، فـإذا وقفـت مع القصر فأنت تقف مع شـعب المحافظـة، وإذا وقفت ضد القصر فأنت تقف ضد شعب المحافظة.

قال مستفزا:

- ومدير القصر أيضا يجب أن يكون من المحافظة.

أدركت أن توتري قد زال وقد تحرَّرت من عقدة الموظف أمام رئيسه منذ أن بدأ واضحا أن اليوم ربما يكـون آخـر أيامي بكفر الشيخ، ولأنني لـم أعـد خائفًـا علـى شـيء فقد شعرت أنني أقوى من المحافظ، وأصبح حـديثنا هادئًـا – ولو ظاهريا – وكأنما يدور عن شخص آخـر غيـري.. قلت..

- وماذا يمنع؟.. لو وجدت مـديرا للقصـر يكـون على مستوى هذه المسئولية فأنا مستعد أن أمشـي فورا من باكر.

- قال المحافظ بلهجة بدت وديـة لأوَّل مـرَّة حتـى لم أعرف إن كان جادا أم ساخرا:

- ألم تجد طوال مدة وجودك هنا شخصا مناسبا لذلك؟

- بل وجدت كثيرين، لكنهم جميعا لن يعجبوك.

- لماذا؟..

- لأنهم سيسيرون على نفس الطريق.

واستعاد المحافظ لهجته العسكرية مرة أخرى قائلاً:

- وما قلتـه عـن قصـر الثقافـة ينطبـق أيضـا على الفرقة المسرحية. لقد قرَرت أن أحل مجلـس إدارتها وأبعدها عن القصر، وسأوكل أمر إدارتهـا إلى السيد المستشار القانوني للمحافظة، وسيقتصـر عملها على تقديم مسرحيات دينية أو تاريخية. ولن أسمح بأن تسيطر على الفرقة مجموعة معينـة أو اتجاه معين أو مذهب معين.

وتأهب المحافظ للقيام فبادرته قائلاً:

- أحبُ أن أقول كلمة بمناسبة "المعينات" العديدة التي أشرت إليها الآن ومنذ بدء هذا الاجتماع.

وتوقفت لحظات، والصمت الذاهل يطبِـقُ علـى القاعـة مشبعا بطنين غامض لكن قـوة مـا كانـت تشـوقني إلـى الاستمرار وعيني في عين المحافظ مباشرة.

- سيادتك تعرف أن في البلد جهـازا اسـمه وزارة الداخلية من مهمته متابعة الشيوعيين، ولـو كـان يرى فيهم مثل ما تـرى لمـا كنـت فـي حاجـة إلى أن تقول ما قلته الآن، لكن الحقيقة المؤكـدة أن هؤلاء الذين تعنيهم هم أشرف العناصر وأخلصـها لهذه المحافظة وأكثرها وعيا بمشاكلها ومصالحها، واسمح لي أن أقول إن إخفاء الرأس في الرمال لن يغير من الحقيقة؛ وهي أن البلد هنـا تعـاني مـن داخلها صراعا رهيبا، لن يوقفه القضاء على تلـك العناصر.

نهض المحافظ منهيا الاجتماع، وخرجنا دون أن ينطـق أحد الحاضرين بكلمة واحدة.

***

(١٤)

وصل الأمر إلـى د. ثـروت عكاشـة وزيـر الثقافـة، عن طريق سعد كامل الذي كنت قد قـدّمـت إليـه تقريـرا بما حدث. وبعد أيام استدعاني الوزير إلى مكتبـه وكانـت المفاجأة أنني لم أكن وحدي، فقد تبينت أنه طلب لمقابلته معي عددا ممن كان يسميهم إبراهيم بغدادي بـ "شـيوعي كفـر الشيخ" : د. علي النويجي، د. جلال رجب المحامي، السـيد أبو اليزيد، وقد أخطرنا بالمقابلـة بشـكل غيـر رسـمي، عن طريق د. أحمد عكاشة الطبيب النفسي المعروف وشقيق الوزير وطبيب آخر صديق للطرفين هو د. فتحـي خليـل، اللذين حضرا المقابلة.

قدّمت للوزير في الاجتماع عرضا عاما لتجربتـي منـذ بدايتها، والصراعات القائمة في كفر الشيخ، وموقف القصـر – بكل صراحة – منها ومن المحافظ، وما حدث في اللقـاء الأخير.. لم يكن هناك ما أخشاه، فقد تصـوّرت أن مهمتـي انتهت في كفر الشيخ، وذكرت ذلك للوزير في نهاية حديثي. فإذا به يعلن تأييده لكل ما فعلته ويقول إنه فخور بي، وإنـه

لا يتصوَر أن أتخلى عن موقعي، كان يبدو متأثرا إلى حـد كبير وهو يشرح همومه في العمل، والحرب الرخيصة التي تُشنُ ضده من كل المواقع، حتى من داخل وزارتـه. وقـال في مرارة:

- أنني أقف فوق مسـتنقع كبيـر، وكـل الصـحف تهاجمني فيما عدا جريدة الجمهورية وهي للأسـف جريدة شبه سرية.

وأبدى تقديره للدكتور علـي النـويجي وزميليـه، بعـد أن تحدَثوا عن تجربتهم معي ومع الواقع في كفـر الشـيخ، وقال إنهم رواد شجعان للديمقراطية، وشكرهم على مساندتهم لي، ثُم قدم شرحا مستفيضا لسياسته الثقافيـة أفقيا ورأسـيا، وقال إن ما يفخر به في تجربته بناءان أساسيان يحققان هـذه السياسة هما: الثقافة الجماهيرية، والمعاهد الفنية.

وفي نهاية المقابلة قال لي في لهجة حارة حميمة:

- أرجوك... أرجوك أن تصمد في موقعـك.. أنـت على رأس قلعة أمامية لوزارة الثقافة، فإذا سـقطت فسوف تسقط بعدها القلاع واحدة تلو الأخـرى... إنك متألم لأن إبراهيم بغدادي يحاربك، فماذا تقول في أنه قدَّم ضدي تقريرا إلى الرئيس عندما كـان ضابطًا بالمخابرات وأنا وزير في المرَّة الأولى؟... استمر... وتأكد أنني لن أتخلى عنك.

وخرجت من الاجتماع دائخًا وأنا أقول لنفسي: ما أعجب أمر هذه السلطة!

***

الصامت ينطق

(١٥)

مناخ الهزيمة يوالي تضييق الخناق على أرواح النـاس، التنظيم السياسي يثبت كل يوم عجزه وانعزاله، مراكز القوى تتزايد وتحكم قبضتها وتمارس أشدّ أنواع القهر والاسـتغلال والاستفزاز لمشـاعر الجمـاهير، التجويـع والكبـت همـا المضمون الحقيقي للشعار الرسمي المرفوع: لا صوت يعلو على صوت المعركة، محاكمات العسكريين المسئولين عـن الهزيمة تؤكد التفريط الإجرامي في حـق الـوطن، نتـائج المحاكمات الهزيلة تثبت عجز النظام وتشكل استفزازا جنونيا للجماهير.

وهكذا انفجر البركان، فـي تلـك المظـاهرات الداميـة في فبراير ١٩٦٨، ولم يعد من الممكن أن يظهر كل شـيء في مكانه.

كان لا بدَّ من العودة إلى قافلة الثقافة، أحاول بها تحريـك صمت القرى... كان الفلاحون خائفين، يحملقون فينا بريبـة ونحن نحدثهم عن التغيير، وكثيرا ما كانوا يغادرون الساحة بمجرَّد أن ينتهي العرض السـينمائي أو الفقـرات الغنائيـة أو المسرحية، ونبدأ في الحديث إليهم عن قضايا الواقع، وأشدُّ ما كان يعذبني أن كل الانفجارات التي حدثت بين الجمـاهير في المدن – خاصة جماهير العمال والطلبـة – لـم تحـرك من سكون الفلاحين، رغم أن قسوة واقعهم أكثـر ضـراوة من واقع كل الطبقات... وتملكني اقتناع بـأن هنـاك شـيئًا ما ناقصا لاكتمال الدائرة الكهربائية بيننا وبينهم، ولم أستطع أن أفهم هل يكمن هذا النقص في أسلوب عملنا أم في وعـي الفلاحين؟ .. إلى أن تقدَّم ذلك الفلاح العجـوز فـي إحـدى الليالي، مقاطعا زميلنا "صفي الدين" – الذي كان يتحـدَّث – وأطبق بقبضته الخشنة على الميكروفون، وانطلـق صـوت مشروخ بالعذاب، يخاطب أهل القرية باللغة التي يفهمونهـا، مقلبا بطن التربة القاحلة كالمحراث المسنون، ليظهر للنور ما بداخلها من عفن... لا... لم يكن حديثه موجها إلى الفلاحين المبهورين، ولا إلينا، بل كان موجها إلى الميكروفون نفسه، يخاطبه وعينه منغرزة فيه، وكأنه يخاطب إنسانًا، وسبابة يده الأخرى تشير إليه بغضب وكأنما يرسل إلى العالم كله – من خلال الجهاز – شكايته.

واكتملت الدائرة الناقصة، وانطلقت الشحنة الكهربية جارفة كل الخوف والسلبية والعجز، مضيئة مساحات الظلمة، كاشفة عن عذابات السنين الطويلة وما وراءها من قلاع.

ودخل حياة الفلاحين هذان الاكتشافان الخطيران: الميكروفون – والمؤتمر: فتشبثوا بهما في استماتة، ولم يكن لقوَّة أن تنتزعهما منهم.

وطفت من الأعماق فوق السطح فظائع وجرائم، صنعت بعضها جيوب طبقة كبار الملاك – المخلوعة شكلاً- وصنعت بعضها الآخر مراكز الطبقة الجديدة المتغلغلة في تنظيم الاتحاد الاشتراكي وفي الأجهزة التنفيذية، المفترض أنها أُنشِئت أساسا لصالح الفلاحين وباسم الاشتراكية....

وطفت فوق السطح عمليات تهريب أرض الإقطاعيين من قانون الإصلاح الزراعي، وجرائم اختلاس وتزوير لحقـوق الفلاحين في الجمعيات التعاونية الزراعية، وسرقة لأمـوال خُصصت لبناء مستشفيات ومدارس أو لتعويض الفلاحين عن حريق أتى على كل ما يملكونـه، وعمليـات تزويـر فـي انتخابات الجمعية الزراعية والاتحاد الاشـتراكي، وتلفيقـات ديون الفلاحـين الفقـراء كمبـرر لمصـادرة مـا جنـوه من الأرض، مما يذكر بعهد المماليك، وعمليـات اسـتغلال من كبار الملاك ومقاولي الأنفار لعمال التراحيـل الأجـرَاء حتى أن بعضهم لم يكن يتقاضى نقودا، بل كوبا مـن الأرز من محصول الأرض عن كل يوم، بل إن ثلاثين ألف إنسان يعيشون في إحدى المناطق النائية المجاورة لبحيرة البـرلس كانوا يستصلحون ١١٨ ألف فدان من الأرض البور، لم يكن لديهم ماء يشربونه غير ماء المصرف الملـيء بـالجراثيم، في حين تمرُ على مسافة قصيرة منهم أنابيب المياه النظيفـة تغذي مدينة "بيلا"، كما لم يكن نصيب الفرد منهم من الدقيق يكفي ليقيم أود دجاجة، وكم منهم مـن مـات مـن التسـمم أو المرض أو الأنيميا.

وانتهى دورنا – نحن الأفندية – في الكلام، واكتفينا بـأن نستمع ونتعلم ونسجل، وبمرور الليالي نشأت في القرى التي نزورها وظيفة الشكاوى والمظلمات، فما إن يبـدأ المـؤتمر حتى يكون العرضحالجي قد اتخذ لنفسـه مكانـًا فـي أحـد أطراف الساحة متربعا كالكاتب المصري القديم أمام "طبليـة" فوقها مصباح الكيروسين ورزمة من الورق وريشة ومحبرة، ومن حوله أصحاب الشكايات يملونها عليـه نظيـر بعـض القروش أو الأرغفة أو حفنة أرز.

كان أصحاب تلك الشكايات فـي العـادة مـن الأرامـل والعجائز الذين لا تـواتيهم الشـجاعة أو القـوَة أو التقاليـد ليعرضوا قضاياهم من الميكروفون، وكلها كانـت تتحـدَث عن شيئين اثنين: الظلم – بأشكاله المتعددة – وقبضة الفقر... ولا أنسى تلك الشكوى التي كتبها فلاح من قرية "محلة دياي" اسمه محمد محمد مطر يقول فيها:

"حيث إنني رجل فقير وذو أولاد كثيرة، وكـان عنـدي عجلة جاموس عشر "أي حامل" في ثمانية أشـهر، وكنـت "بأكلها" بالكسب من مدة ٤ سنوات، وقد حصل لهـا مـرض وذهبت إلى دكتور بيطري وحدة محلة دياي وعالجتها العلاج الكافي ولكن نبحت، فأطلب المساعدة من سيادتكم وشكرا..".

أيُّ قصة وراء هذا الفلاح الذي ليس له في هذا العالم غير حفنة أولاد وجاموسة صغيرة ذُبِحت وهي حامل؟.. أيُّ عطاء كان ينتظره منها بعد أربع سنوات من الصبر؟ وأيُّ مصـير ينتظره بعد ذبحها؟.

كانوا يتصوَّرون أننا مندوبو العدالة، وأننا سـنأتي لهـم بحقهم، ولم يعد غريبا أن يستهل الكاتب "عرضحاله" بقولـه: السيد محافظ كفر الشيخ، أو : السيد وزير الثقافة بكفر الشيخ، أو السيد رئيس لجنة قصر الثقافة... وهكذا كنا نخرج من كل قرية برزمة من المظلمات وشريط تسجيل أو تقرير مأساوي يعكس واقعا لم يخرج بعد من ظلمات القرون الوسطى.

وواجهتنا مشكلة محيرة: أين نذهب بكل تلك الوثائق؟.. لم يكن من الممكن أن نكتفي بحفظها في أرشيف قصر الثقافة،. فقد أصبحنا نحسُّ أن مصير هؤلاء المظلومين معلـق فـي أعناقنا.

وانتهينا إلى قرار، ثُم بدأنا على الفور في تنفيذه..

رحنا نفرغ تلك الشكاوى في تقارير نبعث بها إلـى كـل الجهات المسئولة: تنفيذية وسياسية، ولمـا كـان معظمهـا يتضمن قضايا يعاقب عليها القانون الجنائي، فقد كـان مـن الصعب على تلك الجهـات المسـئولة أن تتجاهلهـا أو أن تتغاضى عن التحقيق فيها.

وسرى نبأ القافلة بين قرى المحافظة كالتيار الكهربـائي، مشفوعا بتفاصيل المؤتمرات والتحقيقات التي أدّت إلى فضح الكثير من الجرائم، التي يختنق الفلاحون بالكثير من أمثالها؛ فوجدوا فـي القافلـة خلاصـا أو رسـولاً إلـى العـدل، أو على الأقل وسيلة للتنفيس من الكبت المخزون.

وأصبح موعد زيارتها لإحدى القرى تاريخًـا لا ينسـى، يعدُّون له الأيام عدا.. ولم يكتفِ أهالي القرى النائية بانتظار دورهم أو حظهم في برنامج زيارتها، بل أخـذوا ينظمـون وفودا إلى مقر القصر بعاصمة المحافظة مطـالبين بمجيئـه إلى قراهم؛ فقد أصبح ذلك امتيازا يتفاخر به أهـالي القريـة على القرى المحيطة، واحتفالاً يضاهي احتفالاتهم بالأولياء...

ولا أدل على ذلك من تلك الكلمات التي تضمنتها رسـالة أهالي قرية "برية لاصيفر" إلى القصر كتبهـا أحـد أبنائهـا المتعلمين بعد زيارة القافلة إلى قريتهم يقول فيها:

"…. ولا عجب إذا سميناها قافلة النور؛ فقـد أزاحـت كثيرا من ستائر الظلام وهالاته المعتمة، وكأنما كانت قريتنا متعطشة إلى مثل هذا اللقاء فخرجت عن بكرة أبيها لتقابـل الضيوف بالهتاف والتصفيق والزغاريد…"

وقامت القيامة على كل الجبهات ولم تقعد…

جبهة كبار الملاك تحفزت بشراسة وكشرت عن أنيابهـا ضد هذا الوافد الغريب الذي جاء يعكر الهدوء العميق السائد لعشرات السنين ويوقظ أحقاد الفلاحين.

وجبهة الإدارة رأت في تلك الحركة تهديدا للأمن وإثـارة للفتن وتجاوزا للاختصاصات وتدخلاً منا فيما لا يعنينا.

وجبهة الاتحاد الاشتراكي "الممثل الأساسي للبرجوازيـة الريفية". استشعرت أن القافلة تحمل أفكارا خطيـرة تسـعى إلى بثها بين الجماهير، وأنها في الحقيقة أخطر مـن كونهـا تعبيرا عن موقف المسئولين عنها وحدهم، وإنما هي تعبيـر عن مخطط كامل من قِبل "جهـات معينـة" لغـزو الريـف المصري بتلك الأفكار.

وجبهة العناصر التقدمية التي وجدت في القافلة وقصـر الثقافة منبرا حرا تستطيع من خلاله أن تقوم بدور إيجـابي في الواقع، وأن تلتحم عن طريقه بالناس.

***

(١٦)

كان الطريق الذي بدأت السير فيه ملغما بالمحاذير والأشواك؛ ومن ثَم كان في هذا الاتجاه قدر كبير من المجازفة، ذلك أن طبيعة عملي كمسئول عن قصر الثقافة – وإن لم يرسمها لي أحد بوضوح – لم تكن تتضمن العمل السياسي المباشر، فضلاً عن العمل على حل مشاكل الجماهير، بل إن الواقع الاجتماعي والسياسي السائد في المحافظة تاريخيا، يعطي كل السلطة لطبقة كبار الملاك الذين نجحوا في الإفلات من قوانين الناصرية المدهونة بشعارات الاشتراكية البراقة، واستطاعوا– صبيحة إصدار هذه القوانين – أن يقفزوا على جميع الأجهزة السياسية والتنفيذية: الاتحاد الاشتراكي، مجلس المحافظة، مجالس المدن والقرى والجمعيات التعاونية، مديريات الزراعة والإصلاح الزراعي والتعليم والصحة والإسكان... إلخ... وجعلوا منها معاقل لنفوذهم وقلاعا لحماية مصالحهم، كل ذلك في غيبة قوى ثورية تملك منبرا حرا للتعبير والتصدي للوجود البرجوازي المتسبب... حقًا كانت هناك عناصر اشتراكية من المثقفين، إلا أنهم كانوا أفرادا متفرقين هنا وهناك،

لا يملكون وسائل للتجمع والنشاط، وقد نجحت القوى المضادة في محاصرتهم بتهمة الشيوعية بما تنطوي عليه هذه الكلمة من أساطير مرعبة تجد صداها في مجتمع ريفي متخلـف؛ ممـا عزلهم إلى حد بعيد عن التأثير الجماهيري. لم ينجُ مـن هـذا الحصار غير حركة الدكتور علي النـويجي، وكانـت تسـبب صداعا دائما للسلطة، فراحت توجه إلى أصحابها الضربة تلـو الأخرى وتلاحقهم بأجهزة الأمن وبالتشريد في أنحاء المحافظة وخارجها، حتى نجحت في الزج بالدكتور وبمجموعة منهم في السجن طوال الأشهر الستة التي سبقت النكسة مباشرة، وكـان دخولهم السجن في نفس الليلة التي وصلت فيها إلى كفر الشيخ لأوَل مرَة لتسلم عملي.

ماذا يمكن لمثلي إذن – مهما كان حماسه – أن يفعل إزاء كل هذه التحديات إلا إذا كان عازما على الانتحار؟... ولـم أكن أقوى على ذلك بالطبع، وفي نفس الوقت لم أفتح أذنـي كثيرا لصوت العقل الذي كان يحتم أن أختار أحـد أمـرين يمثلان جانب الأمان: إما أن أكتفي بالمهمة التقليدية المحدودة لمدير أي قصر للثقافة، وأعقد صلحا مع كافة الأجهزة التـي فتحت عيونها ودعايتها على أقصى اتساعها نحـوي، وإمـا أن أعود أدراجي إلى القاهرة من حيث أتيت...

وتعلمنا أن نغطي عملنا بالشـكل الإداري السـليم الـذي لا يعرضنا للمسئولية، فحرصنا على أن نعتمد برنامج الشهر لجولات القافلة من الإدارة بالقاهرة، ثُم نرسله إلى المحـافظ مع الإشارة إلى أن الوزارة قد اعتمدته، ووجد المحافظ نفسه في مأزق لا مخرج منه، فهو يعلم أنـه لا يسـتطيع إداريـا أن يعاقبني، أو أن يفرض عليَ رسميا برنامجا للعمل؛ بسبب عدم تبعية القصر للحكم المحلي، وقد علمـت أنـه حـاول في القاهرة إبعادي فلم يستطع بسبب تمسك د. ثروت عكاشة بي، وربما كان لسياسة توازن مراكز القوى التي كانت سمة النظام الناصري دخـل فـي ذلـك، ولا أدري لأي مركـز من مراكز القوى كان يستند إبراهيم بغدادي، ولأي مركـز آخر كان يستند ثروت عكاشة، إلا أن الشواهد كانت تثبـت أنهما مركزان متكافئان في الصراع الضـاري بينهمـا، وأن عبد الناصر كان يباركه، وكم أدين لهذا الصراع فـي تلـك التجربة.

وحين قررنا إرسال شكاوى الفلاحـين إلـى المسـئولين بالمحافظة، لم نكن نرسل الأصل إليهم ولا إلـى المحـافظ، بل كان الزميل "زغلول عبد الله" المشرف على القافلة يحتفظ بالأصول في القصر ويرسل تقريرا مفصلاً يتضمن مشـاكل كل قرية إلى المحافظ كرئيس للإقليم، ثُم نرسل صورا منـه إلى المسئولين في القطاعات المعنية، باعتبار زمـالتي لهـم في اللجنة العليا للثقافة والإعلام التي شكلها المحافظ.

كل ما اسـتطاعه المحـافظ والاتحـاد الاشـتراكي، هـو أن يطلب منا اصطحاب مندوبين في القافلة يمثلون المحافظـة والاتحاد الاشتراكي، ولم أمانع في ذلك، وما أسرع أن كسـبنا هؤلاء المندوبين إلى جانبنا، إما بالصـداقة الشخصـية، وإمـا بالفن: فقد كان مندوب المحافظة شابا يجيد العزف علـى آلـة الكمان، وكان من الطبيعي أن يجد المجـال لإشـباع موهبتـه في الفرقة الموسيقية بالقصر، وهكذا كان "المنـدوب" يركـب السيارة معنا من أمام القصر، وما إن تصبح علـى مشـارف المدينة حتى يستأذننا في النزول قائلاً في عشم وهـو يضـغط على أيدينا مودعا: "إنني كنت معكـم.. ألـيس كـذلك؟.." .. وفي الصباح يأتي إلى القصر فيقـرأ التقريـر الـذي كُتِـبَ عن زيارة القافلة ليلة البارحة، وينقل صورة تقريبية منه، يقدمها للمحافظ على أنه كان حاضرا، وأن هذا ما شاهده بنفسه.

لكن الأقدار كانت تنسج الأحداث من تحـت الظـواهر، وتعدُني لدور ما كنت أحلم به، دون أن تتـيح لـي فرصـة حقيقية للاختيار، لتجعل ما حدث فيما بعد أمرا لا مفرَ منـه، في تلك البقعة النائية من أرض مصر.. كفر الشيخ.

***

(١٧)

كانت التطوُرات السياسية تتـوالى مسـتجيبة لإصـرار الجماهير على التغيير الشامل، وتبلـورت هـذه الاسـتجابة في البيان التاريخي الذي قدَمه عبد الناصر يوم ٣٠ مـارس ١٩٦٨ واشتهر بهـذا الاسـم، وكشـف فيـه عـن كثيـر من التصدُعات في الواقع الاجتمـاعي والسياسـي حملهـا لمراكز القوى، التي كانت أوَل مرَة يعترف بوجودها، وطالب في هذا البيان – مع الجماهير – بضرورة التغيير، وقدَم من أجل ذلك برنامجا شاملاً لكل شيء، كان أهمَ ما فيـه إعـادة بناء الاتحاد الاشتراكي من القاعدة إلى القمة بالانتخاب الحر ليتولى الشعب عن طريقه حكم نفسه بنفسـه حتـى تتحقـق الديمقراطية الحقيقية، وطالب من الجماهير في كل القواعد أن تناقش البيان بحرية تامة طوال شهر إبريل حتى يستفتوا عليه في أول مايو بلا أو نعم؛ توطئة لإجراء الانتخابات العامة.

كان عبد الناصر يوحي بأنه لا خلاص لـه مـن أزماتـه الطاحنة- عسكرية وسياسية واقتصادية، تلـك التـي جعلتـه في مركز الضـعف بـين مراكـز القـوى – إلا بـاللجوء إلى الجماهير، ولم يكن واضحا حتى ذلك الوقت هل كان جادا تلك المرَة في لجوئه إلى الجماهير أم أنه– مثـل كـل مـرَة طوال تاريخ حكمه– يستخدمها كورقة سياسية، بينمـا ينفـرد في الحقيقة بحق التعبير عنها: يتحـدَث باسـمها ولا يسـمح لها بالحديث، يفكر لهـا ولا يسـمح لهـا بـالتفكير، يمنيهـا بالديمقراطية ولا يسمح لها بممارستها.. وأيا ما كان الأمر فقد تمسكت الجماهير بالبرنامج الذي تضمنه البيان ووجدت فيـه هي أيضا خلاصها... وهكذا اندفعت تؤيده بحماس محمـوم، متجاوزة كل الأجهزة الرسميـة والشعبية التي راحت تتخـبط كالدجاجة المذبوحة، وتحـاول باسـتماتة يائسـة أن تفـرض وصايتها عليها أو أن تسحب الأرض من تحت أقدامها.

وكانت تعليمات عبد الناصـر أن تقـوم كـل الأجهـزة الإعلامية بإتاحة الفرصة للنـاس لمناقشـة البيـان بشـتى الوسائل. ووصلتني التعليمات من الوزارة بأن أشـارك فـي المناقشة عن طريق القصر والقافلة؛ وكان هذا فوق ما كنـت أحلم به.

راحت القافلة تنتقل كل ليلة إلى قرية جديـدة، وأصـبح التركيز كله على إقناع الفلاحين بأن خلاصهم هـو إسـقاط لجان الاتحاد الاشتراكي الفاشلة، وانتخاب ممثلـين حقيقيـين لمصالحهم من بينهم هم. واشتعل حماس الفلاحين وراحـوا يكشفون فساد اللجان المنحلة التي نجحـت فـي الانتخابـات السابقة بالغش والمحسوبية والإرهاب، وعن وحدة المصـالح بينهم وبين كبار الملاك والمـوظفين ذوي الـذمم الخربـة، وكانوا يؤكدون كل مرَة على أنهم لن يسـمحوا لمثـل هـذه اللجان بأن تعود مرَة أخرى، وأنهم لا بـدَ آتـين بممثلـيهم الحقيقيين.

وبدأت ضدنا حرب مسعورة ومنظمة، من كبار المـلاك والموظفين وعناصر الاتحاد الاشتراكي المنحل، وكان شـيئًا عاديا أن نجد عناصر منهم أو عملاء لهم وسـط الفلاحـين يرجمون القصر والقافلة ويتهمونهما بأنهما يعملان على نشر الكفر والإلحاد والشيوعية، أو أن أجد بعضـهم يتربصـون بالقافلة وسط الحقول في طريق ذهابها إلى إحـدى القـرى أو عودتها منها ويقذفونها بالحجارة، وقد أوشك أحـد تلـك الأحجار ذات ليلة أن يودي بحياة "زغلول عبد الله" المشرف على القافلة أثناء العودة بعد انتهاء المؤتمر بإحـدى القـرى،

لولا أن تراجع برأسه عن نافذة السيارة، وفي قرية أخـرى قفز أحد الفلاحين إلى داخل القافلة ونحـن نتأهـب للعـودة وهمس في أذني قائلاً بأن هناك "رباطية – كمينا" منصـوبا لقتلنا بعد أن نغادر القرية في طريق عودتنا، ثُم لازمنا الفلاح في السيارة ليرشدنا إلى طريق آخر نعود منه.

وفي الصباح أحد الأيام تلقينا بالقصر برقية مـن فلاحـة تُدعى "هنية" بقرية – برية لاصيفر – تقول:

"حضرت ببلادتنا قافلة الثقافة يوم ٧-٤-٦٨، وتحدَثـتُ بصراحة عن مشـاكل القريـة؛ فتحـدتني عائلـة النـادي وهددوني بالانتقام وحبسوني في بيتي. أغيثوني قبل حدوث معارك دموية".

تذكرت هذه الفلاحة الكهلة العفية وهي تصول وتجـول فـي شجاعة تفوق الرجال والميكروفون في يدها تكاد تعتصره فـي سورة غضبها، مطلقة صواريخها على قلاع العائلات الإقطاعية بالقرية وأدواتها في استغلال الأهالي الفقراء مثل لجان الاتحـاد الاشتراكي والجمعية الزراعية. وفي شرفة بمنزل فـاخر نسـبيا تطل على الساحة المشتعلة، وعلى بعد بضـع عشـرات مـن الخطوات كان يجلس في الظل بعض أكابر العائلات (مـن ذوي الأكمام الواسعة) يتابعون ما يجري في صمت منذر بالثأر.

على الفور اتصلت بمدير الأمن في المحافظة، وشـرحت له الموقف وحمّلته في النهاية مسئولية حماية حيـاة "هنيـة" وأهالي قرية "برية لاصيفر" .. فأرسل في الحال من أطلقهـا من سجنها...

وبينما كان هذا يحدث في القرى النائيـة، كـان القصـر بالعاصمة أيضا يموج كل ليلة بمؤتمر مشابه، لم أكتف فيـه بدعوة شخصيات من كفر الشـيخ للمناقشـة مـع النـاس، بل دعوت عديدا من الشخصيات العاملة، في القاهرة، التـي عرفَت بمواقفها الديمقراطية.

كنت أشعر أننا في سباق مع الزمن، لم أكن واثقًا من جديـة النظام في التغيير لكني كنت أراهن على هذا الشهر مـن عمـر شعب هذه المحافظة، فإما أن يكون به شيء... أو لا يكون.

وكانت الأجهزة الرسميـة تزداد تخبطًا كل يوم في موقفها من كل هذا... أذكر أننا تلقينا في يوم واحـد أربـع إشـارات تليفونية متناقضة من جهات مختلفة حول ما ينبغي عمله: الثقافة الجماهيرية تقول: "انزل بالبيان".. الاتحاد الاشتراكي يقول: "لا تتدخلوا في عملنا"... ووزارة الداخلية تقول: "انتظر التعليمات".. مكتب وزير الثقافة يقول: "نسـق مـع الاتحـاد الاشـتراكي والمحافظ"... بالرغم من أن الاتحاد الاشتراكي كان منحلاً...

ولم أشغل نفسي بهذا التخبط، كنت مستندا على أن خطة القصر والقافلة لشهر إبريل قد أُعتُمِدت وأُرسِلت إلى المحافظ من أوّل الشهر ولم يصلني أي اعتراض عليها، وأكثر من كل ذلك أن أحدا لم يكن يستطيع أن يحاسب أحدا في تلك الظروف فلم تكن هناك دولة تقريبا، والدوّامة المحمومة قد أصابت الجميع.

كل هذا حدث في أقل من عشرة أيام.

وبينما كان هذا يحدث، كانت حركة فوران أخرى تحدث في عدة مواقع بالمحافظة، خاصة في مدينة دسوق، وهي حركة كان يقودها المثقفون التقدميون من دسوق، الذين انتهجوا أسلوب حلقات الشوارع والمقاهي لإدارة مناقشاتهم مع الأهالي، وقد تصدّر الشعراء تلك الحلقات واعتلوا مقاعد المقاهي وامتلكوا النفوس والقلوب كل ليلة حتى الفجر، لقد هوى سلطان أبطال الكرة وخطباء المساجد ورجال الضبط والربط، وأصبح قلب المدينة الدينية المقدّسة في أيدي الشعراء والساسة.

كان الشاعران الأبنودي وعبد الصبور منير من النجـوم الباهرة، بينما تحوَل الدكتور علي النـويجي إلـى أسـطورة أو أب روحي لكل الفقراء والمثقفين.

وفي مواجهة كل هذا استعرت حملة أجهزة الأمن ضد كـل العناصر الوطنية، وأُستُخدِمت فيها كل الوسائل بما فيها التشـهير بالشيوعيين الذين يتزوَجون أمهاتهم! ومنابر المساجد التي تحوَلت إلى فروع تتلقى تعليماتها من مكتب المباحث وتوزع على أئمتها الخطب مطبوعة، وقد تحوَلت القضية إلى حربٍ ضد الكفار.

وفي مدينة كفر الشيخ نفسها "عاصمة الإقليم" كان الجـوُ أهدأ نسبيا وإن بقي جوُ الصراع مخيما؛ لـذا فقـد كـان أي تحرُك يقوم به القصر في اتجـاه سياسـي ينـذر بانفجـار الموقف، وقد حدث ذلك بالفعل في الندوة التي أُقِيمت بجمعية الشبان المسلمين لمناقشة بيان ٣٠ مارس في أوائـل إبريـل ودعِي إليها عدد من قيادات المحافظة. لكن بدلاً من مناقشـة البيان اندفع بعضهم يهاجم المدَ الشيوعي المتغلغل فـي كـل أجهزة الإعلام والثقافة، وبمناسبة وجود بعـض الضـيوف السينمائيين من القاهرة انقضَ على الأفلام السينمائيـة محملاً إياها – ومن وراءها وزارة الثقافـة التـي يسـيطر عليهـا الشيوعيون – مسئولية النكسة.

وما إن انبرى أحد المحامين مـن كفـر الشـيخ وهـو محمد عوض المحامي – للرد على المتحدث الغاضب، حتى اندفع فريق كامل من الرجال الأشداء من وسط الصفوف نحو المحامي الأعزل بشكل بدا أنه واضح التدبير، وانهالوا عليه ضربا وحشيا حتى هوى ملطخًا بدمه.

ورغم نقله للمستشفى وإثبات الحادث في محضر الشرطة وشهادة الشهود... فقد حفِظَت الواقعة وقُيدت ضد مجهول.

***

وذات صباح استدعاني سـعد كامـل لحضـور مـؤتمر لمديري القصور يعقَد بالإسكندرية، وهناك نوقشـت مسـألة التحرُّك ببيان ٣٠ مارس. ورغم أن سعد كامل لم يعتـرض على حركتي من خلال القصر والقافلة – التي كانت أخبارها تدوي إلا أنه لم يستطع أن يخفي قلقه من نتائج هذا الاندفاع، وأبلغني قلق وزير الثقافة كذلك؛ وأدركت عندئذ السبب وراء الإشارة التليفونية الأخيرة من مكتب الوزير حـول التنسـيق مع الاتحاد الاشتراكي والمحافظ!

سألت سعد كامل:

- وما رأيك أنت؟

قال : لا أدري.. لكن لعل من الأنسب أن نتروَى قليلاً..
وبدأ يتحدَث عن الضوابط.

وعدت إلى كفر الشيخ، طوال الطريق من الإسكندرية إلى هناك كنت أفكر دون أن أصل إلى قـرار.. كنـت أشـعر بالاضطراب، وبالوحدة... لكن ما إن دخلـت القصـر فـي المساء، ووجدت أحد المؤتمرات قائما، حتى تبدَد اضطرابي ونسيت كل شيء عن حديث الإسكندرية.

كانت الفنانة الممثلة محسـنة توفيـق تحضـر المـؤتمر وتشارك الجمهور في القاعة في مناقشة برنامج ٣٠ مارس. لم يكن في ذلك جديد بالنسبة لي، لكنه جعلني أتأمل الموقـف قليلاً: ها هي ذي سيدة تترك مسرحها ومجتمعهـا المتـألق بالأضواء في القاهرة، وتجيء إلى أعماق الريف دون مقابل لتختلط بالجماهير والفلاحين وتناقش معهم قضـايا سياسـية، ويتوحد الجميع في إرادة واحدة ناضجة تصـدر القـرارات والتوصيات وترسلها إلى المسئولين.

أي قوى وأية تحفظات تستطيع أن تكتم كل هـذا الـزخم الحار؟

وعند منتصف الليل كنت وزملائي نُعِدُ ترتيبـات زيـارة القافلة في الليلة القادمة لقرية "مطوبس" مركز "فوه" محافظة كفر الشيخ.

الصامت يصرخ

(١٨)

لم تطل دهشتنا كثيرا في الساحة الواسعة شـبه الخاليـة بقرية مطوبس، في مساء ذلك اليوم ١٤ إبريل ١٩٦٨، ونحن نقف بالقافلة وليس حولنا غير عدد قليل من الفلاحين وكثيـر من الأطفال والصبية... فقد حضر ضباط بوليس برتبة رائد وقدَم نفسه إليَ بأنه ضابط نقطة الشرطة بالبلـدة، واقتـرح عليَ في أدب جم ألا أقيم الندوة في هذا المكان حيث الأتربة والأطفال المشاغبون، وعرض عليَ أن أقيمها عنده في فناء نقطة الشرطة!.

ضحكت بالطبع وذكرته بما تمثله نقط الشـرطة بالنسـبة للفلاحين، فضلاً عن أن الفناء لن يتسع قطعا، إلا لعدد محدود منهم. فراح يجادلني في أهمية ذلك بالنسبة لي ضمانًا للأمن، أما عن مسألة العدد فما حاجتي إلى مئات الفلاحين الجهلـة الذين لا يفهمون في السياسة؟..

وقال إنه سوف يختار مجموعة محترمة ومتعلمـة مـن الأهالي تستطيع مناقشة البيان. قلت له إنني لم أحضـر مـن أجل هؤلاء إفهم قادرون على فهمه دون مسـاعدتي، وإنمـا حضرت أساسا من أجل أولئك "الجهلـة الـذين لا يفهمـون في السياسة"، والذين لم يسمعوا في الغالب عن البيان.

واستمرّ الجدل بلا طائل وإن التـزم الضـابط بالهـدوء، والأدب، حتى تركني وهو يقول:

- والله أنت وشأنك، لقد أديت ما عليّ.

وخلال الحديث تجمعت أعداد جديدة من الفلاحين تراقـب في حذر ما يدور، وتشجعت شيئًا فشـيئًا علـى الاقتـراب والإحاطة بنا، ولما وجدوه يمضي في هدوء دون أن يحـدث ما كانوا يتوقعونه بدأ اللغط بينهم، واستطعت أن أفهـم مـن خلاله أنه كانت هناك تعليمات بألا يحضر أحد إلى القافلة.

اتضحت أمامي الصورة، وأيقنت أنه لن يتاح لنا أن نقـيم الندوة الليلة ولا في أي ليلة أخرى، واتخذت قرارا أخبـرت به زغلول عبد الله وبقية الزملاء...

قلت لهم إنها آخر ليلة لنا، فـلا يجـب أن تمضـي دون أن نترك أثرا، إنني أتوقع أن يحضـر مسـئولون آخـرون لمناقشتنا في محاولة لمنعنا أولاً بالحسنى فإذا فشـلوا فـإنهم قد يستخدمون العنف إذا اقتضـى الأمـر... لـذلك فعلينـا أن نستفيد من الوقت الباقي أمامنا فـي مناقشـة الفلاحـين – الذين توافدوا بغزارة مفاجئة – حول البيـان وضـرورة تمسكهم بإسقاط الأجهزة التي اسـتغلتهم طـويلاً، وانتخـاب عناصر تمثلهم بشكل حقيقي، ومن جـانبي فسـوف أعمـل على إطالة أمد المفاوضات كلما كان ذلك ممكنًا.

صحَ ما توقعته... فما هي إلا دقائق حتى وجدت أمـامي مجموعة من الفلاحين لكن بملابس تشي بالنعيم، مـن ذوي الأكمام الواسعة على حد تعبير فقراء الفلاحـين... قـدَمـوا أنفسهم على أنهم أعضاء وحدة الاتحاد الاشـتراكي بالقريـة والمسئولون عن الجمعية التعاونية الزراعية. بدءوا حـديثهم بعتاب "من باب العشم"؛ لأننا لم ننزل ضيوفًا عليهم، وأنهـم انتظرونا في الوحدة وفي الجمعية دون جدوى، فقالوا أمرنـا إلى الله نقوم نحن ونبحث عنهم...

وبدأت المناقشة معي حول أنهم "قاموا بالواجـب" قبلنـا وقتلوا البيان بحثًا من الفلاحين، ولم تعد هناك حاجـة إلـى إعادة المناقشة.. إلا أن صوتًا من وسط الفلاحين حولنا صاح معلنًا أنه لم تحدث مناقشة للبيان مرَّة واحدة في البلدة؛ فصاح فيه أحد أصحاب الأكمام الواسعة:

- اخرس يا ولد... إيش عرَّفك أنت؟..

وخرس الفلاح، لكن كان هناك بالقرب منا حلقات عدة من الفلاحين تجمعت كل حلقة حول أحد الزملاء، وهو منهمـك في الحديث إليهم.

استمرَّت المناقشة مع أعضاء اللجنة طويلاً، وتـذرَّعـتُ بالصبر وهم يعرضون عليَّ كنـوع مـن المسـاومة علـى الطريقة الريفية – أن "نقسم البلد نصفين" كما يقـول المثـل فنقيم الندوة في دوار العمدة أو في منـدرة أحـدهم أو مقـر الوحدة أو الجمعية الزراعية... وخلال المناقشـة حرصـت على أن أرفع صوتي حتى يسمعه الفلاحـون، وأن يتضـمن حديثي أهم النقاط في البيان، خاصة المتعلقة بضمان التمثيـل النزيه في الانتخابات.. ولم يجـدوا أمـامهم فـي النهايـة إلا أن يتركونا ويمضوا.

كانت الساحة قد أوشكت على الامتلاء بالأهالي حين أتى الوفد الجديد للمفاوضات... كان مكوَنًا من نائب الدائرة وهو معروف بأنه من الإقطاعيين ذوي التاريخ الإرهـابي ضـد الفلاحين في "فـوه"... ومعـه أمـين الاتحـاد الاشـتراكي على مستوى المركز.

ودارت المناقشة من جديـد، وإن اتسـمت هـذه المـرَة من جانبهم بطابع التحدي والتهديد المستتر، تطايرت خلالهـا عبارات مثـل: "أنـت تتـدخل فـي مسـائل ليسـت مـن اختصاصك"... أو .. "الاتحاد الاشـتراكي مـا زال قائمـا وسوف يعود بمن فيه أقوى مما كان". وكلمات مثل : "مبادئ دخيلة"... و"بث الفرقة"..إلخ.

وفي هذه الجولة من المفاوضات أصبح الفلاحون طرفًـا في المناقشة؛ فأخذت تعليقاتهم تتعالى حول المشاكل القائمـة والاستغلال وفساد اللجان الحالية و.. وأخيرا مضـى الوفـد وهو يرغي ويزبد.

ومضت الدقائق بطيئة وأنا أخمن من سيأتي بعـد ذلـك، وأتابع المناقشات التي ملأت الساحة في شكل مؤتمر من نوع غريب، والغبار يتصاعد صانعا سحبا رقيقة فـي إشـعاعات الضوء الكهربائي الذي ترسله كشافات القافلـة، والأطفـال والصبية يكونون مؤتمرات أخرى خاصة بهم فـي أطـراف الساحة يلعبون ويتصايحون ويتشقلبون فـي ابتهـاج كـأنهم في ليلة المولد...

وفجأة توقفت في أحد أطراف السـاحة البعيـدة عربـة (لوري) مكشوفة تكتظ بعشرات من جنود البوليس يحملـون في أيديهم عصيا غليظة. خيم الصمت تماما وكـل الوجـوه تشرئب في اتجاه العربة، ومرَت اللحظات ثقيلـة والعربـة واقفة والجنود كالتماثيل، ثُم ظهرت عربة جيب مغلقة بالقرب من اللوري، نزل منها ضابط برتبة كبيرة وتبعـه ضـابطان صغيران، تقدَموا في اتجاهنـا بهـدوء وثقـة، والفلاحـون يتراجعون ويتجمعون بعيدا... أخيرا توقفوا أمامي وحيـاني الضابط الكبير وقدَم لي نفسه على أنه مأمور مركز بـوليس "فوه"... كان كهلاً في نحو الخمسين. خافت الصوت، قليـل الكلام، يبدو ملولاً وحريصا على وقته الثمين... بادرني قائلاً بلهجة حاول أن يخفف من عسكريتها:

- سمعت بوجود مشكلة هنا... ما الموضوع؟

أخبرته بأدب أنه لا توجد مشكلة من جـانبي، كـل مـا في الأمر أنني أتيت لإقامة ندوة عن بيان ٣٠ مارس طبقًـا لبرنامج القافلة المقرَّر لكن يبدو أن المسئولين هنا لا يوافقون على ذلك.

قال ببساطة:

- طيب ما دام المسئولون لا يوافقون فلمـاذا تصـمم عليها؟... أليسوا أدرى بظروف بلادهم منك؟

رحت أناقشه بصوت تعمدت مع هدوئه واتزانه أن يكون عاليا؛ حتى يسمح الفلاحون الذين يخيم عليهم صمت رهيب. ذكرت له كل الكلام الذي سبق أن قلته مرَّات عـن البيـان وحقي في مناقشته بل وواجبي في ذلك، وهو يقاطعني بـين الحين والآخر مصرا علـى أنـه لا شـأن لـه بالسياسـة، وأن مهمته فقط هي حفظ الأمن، وأن البوادر تنبئ مـن الآن بحدوث اضطرابات في الأمن؛ لهذا فمن واجبه حمايتي وذلك بمنع إقامة الندوة، ولما وجد مني إصرارا على مناقشته فيما يتضمنه البيان، من حق الجماهير في التعبير... إلخ، قاطعني محتدا لأوَّل مرَّة:

- أنا لم أحضر لتعطيني محاضرة في السياسة بل لأبلغك أن الندوة لن تتمَ.
- لكن لديَ تعليمات صريحة بإقامتها.
- وأنا أيضا لديَ تعليمات صريحة بمنعها.
- هل يمكن أن أعرف من أي جهة تلقيت هذه التعليمات؟
- ليس هذا من شأنك.
- إن هذا ليس تدخلاً في شئونك الخاصة؛ لأن هذا أمر يخصُ كل هؤلاء الناس، إن التعليمات التي لديَ من وزير الثقافة، وهو ينفذ بهذا تعليمات الرئيس، فلأي جهة ترجع التعليمات التي تلقيتها أنت؟... هل ترجع إلى الرئيس أيضا؟

قال وقد نفد صبره:

- لقد عطلتني بما فيه الكفاية.. يجب أن تقرر حالاً: هل ستلغي الندوة أم لا؟
- ليس من حقي أن أقرر ذلك الآن، إنما هو من حق هؤلاء الناس.

صاح في غضب:

- دول شوية بهايم.

وتحوَّل بعنف إلى أحد الضابطين خلفه وأمره بتفريق الفلاحين.. وفي لحظات كان الجنود يقفزون من اللوري بعصيهم ويطيحون بها وسط الفلاحين في ضربات عشوائية وهم يسبونها بأقذار الشتائم.

قفزت إلى داخل القافلة وأمسكت بالميكروفون ووجدتني أصيح بهستيرية:

- يا فلاحين... يا جعانين... يا عرايا... عبد الناصر يعطيكم السلطة في أيديكم مش قادرين تأخذوها.. دي فرصة حياتكم... يا تأخدوها وتبقوا بني آدمين.. يا تفضلوا طول عمركم بهايم وتنضربوا بالشوم.. لإمتى حتفضلوا ساكتين؟.. لإمتى.. لإمتى..؟

بدأت هتافات الفلاحين تتعالى رغم هراوات الجنود:

"يسقط الظلم... ناصر... ناصر... نريد العدل" مدوية كالزئير في سماء الساحة التي عمها الظلام بعد رفع كشافات القافلة استعدادا للرحيل، وحين بدأ التحرُّك بالسيارة اندفعت كتل منهم تسدُّ الطريق أمامها وهي تهتف: نريد العدل...

وظلت جماعات منهم تجري وراءها حتى غادرنا حـدود القرية، وأنا أنظر إليهم من النافذة مختنقًا بغصة مرَة وأصداء هتافاتهم تدوي وتلاحقني في إيقاع مؤلم.. وألقيـت بنفسـي على مقعد السيارة في إعياء، أنظر شـاردا إلـى مسـاحات لا متناهية من الظلام.

***

(١٩)

حين وصلنا إلى كفر الشيخ اتجهت على الفور إلى مكتب المحافظ... لم أجده...

سألت مدير مكتبه عنه فنفى أنه يعرف مكانـه. حاولـت بواسطة التليفون أن أبحث عنه في كل مكان أعرف أنه يمكن أن يكون فيه: في المنزل... في النادي... حتى فـي البيـت الذي أعرف أنه يسهر فيه أحيانًا مع بعض المقرَّبين... دون جدوى.

ولم أجد أمامي إلا الذهاب إلى مكتب التلغراف، وبعثـت برقية بما حدث إلى رئيس الجمهورية، ونسـخًا منهـا إلـى وزيري الثقافة والداخلية وإلى أمين عام الاتحاد الاشـتراكي ومدير عام الثقافة الجماهيرية... وأخيرا إلى محـافظ كفـر الشيخ.

وفي الصباح كان إبراهيم بغدادي يستدعيني فـي مكتبـه ليؤنبني على أحداث الشغب في مطوبس وإزعاج المسـئولين بالبرقيات. سألته إن كان حقًا قد أعطى تعليمات إلى مـأمور "فوه" بفض الندوة، فتجاهل سؤالي، وراح محتـدا يحملنـي

مسئولية التخريب في المحافظة، وأن محاولتي لمناقشة البيان أمر غير مشروع ومخالفة للتعليمات، وتعرَض للندوة السابقة بالقصر يوم ١٣ إبريل (التي حضـرتها محسـنة توفيـق) وهاجمنا معلنًا عدم حق القصر في إقامة ندوات، وقال إنـه لا يعترف بالجمهور ووصفه بأنه مجموعة حيوانات.

نهضت واقفًا وقلتُ إنني لن أسمح لـه بإهانـة الشـعب وحملته مسئولية كلماته وطلبت التحقيق فورا فيما حدث ليلـة أمس.

رفع التليفون في عصبية وطلب مدير الشـئون القانونيـة وكلفه بأن يسجل أقوالي... (لم يشأ أن يقول لـه أن يجـرى التحقيق معي).

بدا المحقق، حين ذهبت إليه، فـي غايـة الاضـطراب، ورجاني أن نؤجل سماع أقوالي إلى الغد، وأخذ يلحُ في ذلك فوافقت؛ لأن هذا يساعدني على ترتيب أفكاري.

في صباح اليوم التالي ٤/١٦ قبل أن أذهب إلى المحقـق تلقيت برقية تقول:

"أشكركم والسادة الأعضاء على برقيتكم الرقيقـة التـي بعثتم بها إليَ، وفقنا الله إلى ما فيه تحقيق النصر والعـزَة للعروبة وأعرب لكم جميعا عن أطيب التمنيات"

إمضاء: جمال عبد الناصر!.

وجدت المحقق ينتظرني بقائمة اتهامات تقول:

"منسوب إليك الخروج على مقتضى الواجب الوظيفي فيما يلي:

١- مناقشة البيان بالقصر والقافلة رغم عـدم وجـود تعليمات بذلك.

٢- عدم إخطار الأمن مما اضطر البوليس إلى ما فعل.

٣- إرسال برقيات إلى جهات عليا تعلن فيها ما حدث".

أجبت المحقق مفندا الاتهامات الثلاث ثُم قلت له أخيرا:

- وعلى كل حال فليس كل ذلك مهما، إنما المهـم هـو موقف السيد المحافظ من مناقشة البيان، وقد اعتـرف مأمور "قوه" بأن لديه تعليمات بمنعها، فمن هو صاحب هذه التعليمات؟.. ثُم ذكرت سبَ المحـافظ للجمـاهير وفي النهاية طلبت – ويد المحقق الكهل ترتعش مـن الخوف وهو لا يجرؤ على الكتابة – التحقيق مع كـل المسئولين عن ذلك، بما فيهم السيد المحافظ.

ولم يظهر لهذا التحقيـق أو لنتيجتـه أثـر حتـى الآن، وإن كان سؤالي عمن أصدر التعليمات قد وجد – عنـدي – الإجابة عليه.

***

(٢٠)

بعد أيام اُستُدعِيت لمقابلة شعراوي جمعة – وزير الداخلية وأمين التنظيم السياسي والحزب الطليعي– وحضر المقابلـة معي بمكتبه سعد كامل، وأحمد حمروش باعتباره صديقًا لكن الأطراف بما فيهم إبراهيم بغدادي.

قال الوزير – رغم محاولته استخدام الحلم وتأكيد ثقته في وطنيتي وإخلاصي – إنني مخطئ في حق إبراهيم بغـدادي؛ لأنني لا أتعامل معه كرئيس جمهورية الإقليم، وإنني يجـب أن أتعاون معه وأن أخفف من اندفاعي، وأنه يعلم أن هنـاك عناصر معينة تستغل حماسي ولا يجـب أن أعطيهـا هـذه الفرصة... إلخ.

ذكرت له موقف المحافظ من القصر ومـن الجمـاهير، وتعليماته بمنع المناقشة فتغاضى عن كل ذلك وكرَّر بحسم:

- يجب أن نتعاون مع إبراهيم بغدادي.

عدت إلى كفر الشيخ ولم أحاول الاتصال بـ ـ "إبـ ـراهيم بغدادي"، وظللت أذهب يوميا إلى القصر، مـع عـدد قليـل من الزملاء، بعد أن ألغى المحافظ انتدابات الفرقـة ومعظـم العاملين، دون أن أمارس أي نشاط.

وبعد ما يقرب من أسبوع اتصل بي أحمد حمروش مـرَة أخرى، وكذلك فعل – ويا للدهشة – مع د. علـي النـويجي ود. جلال رجب المحامي بـ "كفر الشيخ" مخبرا إيانا بموعد لمقابلة شعراوي جمعة.

راح الوزير – الذي كان يعدُّ أقوى رجل فـي الحكـم – ينظر إليَ وإليهما بابتسامة وكأنه يقول لي: ها قد أحضـرت أولياء أمرك ليقنعوك.. وراح يلف ويدور محـاولا إقناعنـا بضرورة التعاون مع إبراهيم بغدادي. قال له علي النـويجى بسخرية القروي المعهودة فيه:

- والله هذا الرجـل (مشـيرا إلـيَ) يعمـل عنـدكم في الحكومة، تقولون له اذهب إلـى كفـر الشـيخ يذهب.. اذهب إلى إبراهيم بغدادي يذهب.. افعـل كذا يفعل.. أنتم حكومة في بعض.. أمـا نحـن.. فناس على باب الله... دكتور ومحامي أرياف... ما لهم ومال الحكومة؟... نحن ناس على قد حالنا!.

أُستُفِزَ الوزير من تهرُّبه الماكر وراح يهـدد ويتـوَعـد، ثُم يعود فيتلاطف محاولاً باستماتة الحصول على وعـد منـا بالتعاون مع إبراهيم بغدادي. وفي النهاية يبـدو أنـه يـئس من ذلك فقال لي أن أستريح قليلاً في كفر الشيخ حتى يـأتي بنفسه ليفتتح القصر بعد أسابيع.

ومرَت الأسابيع والشهور ولم يحضر شعراوي جمعة، ولم أذهب إلى إبـراهيم بغـدادي، وظللـت كالعـادة حريصـا على الذهاب كل يوم إلى القصر المهجور.

وذات صباح فوجئت بمدير الإنشاء والتعمير بالمحافظـة يتصل بي تليفونيا ليقول إن لديـه تعليمـات مـن المحـافظ بأن يضع إمكانياته تحت أمري لعمل الإصلاحات التي طلبتها بالقصر. قلت له بدهشة إنني لم أطلب أية إصلاحات فقال:

- لكن السيد المحافظ طلب أن تُهدَم أسـوار القصـر ونقوم ببعض التعديلات.
- أنا لا علم لي بشيء من ذلـك، ولا أحتـاج أيـة تعديلات.

ومع ذلك، ففي اليوم التالي جـاءت عربـات المقـاولين وشرعت في هدم سور القصـر التـاريخي الـذي يحـيط به وبحديقته الشاسعة، ويوما بعد يوم أخذ الهـدم والتعـديل يتقدَمان إلى داخل القصر كأنما يعدُ لمهمة أخرى، وأنا ونفر قليل من زملائي نجلس بداخله ونتفرَج على ما يحـدث دون أن نفهم شيئًا.

كان د. ثروت عكاشة قد تخلـص مـن اليسـاريين فـي الوزارة ولم يستعصِ عليه إلا سعد كامل، الـذي رفـض أن يقدم استقالته أو أن يطلب نقله إلى جهة أخرى ممـا وضـع الوزير في موقف حرج، واضطره إلى اتخاذ القـرار بيـده مضاعفًا بذلك عقدة الذنب لديه، ويبـدو أن عجـز الإنسـان - رغم كل قوته- في مواجهة خصم أعزل، خاصة إذا لـم تكن لديه قناعة عقلية بمعركته، يدفعه إلى مزيد من العنـف، ومزيد من التورُط؛ وبالتالي تتضخم الخسائر وعقدة الـذنب أيضا.

وهكذا أقام الوزير – الذي كان بالأمس فقط ثوريا – مذبحة لـ "سعد كامل"، فقد عقد اجتماعا عاما لكل العاملين بالثقافة الجماهيرية في كل المحافظات حتى ملئوا صالة مسرح الجمهورية، وشنَ عليه حملة ضارية، مستخدما كافة الوسائل، بما فيها الموظفين القدامى الذين أبعدهم سعد كامل (بموافقة الوزير أيامها) وغيرهم من الموتورين؛ إذ أطلق عقالهم ليهاجموه ويتصيدوا له الأخطاء، وحين طلبت الكلمة أنا وبعض زملائي الشبان أغفل الوزير طلبنا لكنه أعلن في سياق التنظيمات الجديدة للعمل اختياري لموقع قيادي للإشراف على عدة محافظات بالوجه البحري بالاشتراك مع بعض القيادات القديمة المخلوعة التي أعادها إلى العمل... وهكذا تصوَر أنه يرضي القديم والجديد في وقت واحد.. لكن هذا لم يصلح كترضية للشباب فأعدنا طلبنا للكلام على مسمع من جميع الحاضرين، وإزاء هذا الضغط وعدنا في نهاية الجلسة باجتماع خاص بمكتبه في المساء.

***

جلسنا – مجموعة المديرين الشبان – في الموعد المحـدَّد في حجرة ملاصقة لمكتب الـوزير المقابلـة، واكتشـفنا أن بالحجرة المجاورة لنا تماما مجموعة أخرى مـن المـديرين الكهول المبعدين، ينتظرون هم أيضا موعدهم مع الوزير.

لقينا د. ثروت عكاشة بشكل ودي وهو يتعرَّف على كـل منها، ثُم بدأ يتكلم مرَّة أخرى عن انحرافات سعد كامل التـي كانت تتلخص في أنه يسيء معاملته ويتعالى عليه.

أخذت الكلمة وشرحت تصوُّري العام للسياسة الثقافيـة التي يجب أن تنتجها الثقافة الجماهيرية، والتي كانت تتحقـق إلى حد كبير في ظل سعد كامل لولا العديد مـن العقبـات، وأن مهمتنا هي تدعيم هذه السياسة لأهدافها، بغـض النظـر عن المواقف الشخصية.

استخدم الوزير كـل إرادتـه ليكبـت غيظـه، وعلـق على كلامي باقتضاب قائلاً إن لي وضعا خاصا سوف يناقشه معي على انفراد في موعد حدَّده باليوم التالي(٨). واستمرَّ قائلاً إنه يعتزُّ بنا نحن الشباب ويعتبرنا إحدى ايجابيات وزارته.

وذكرني هذا بكلام شبيه به وجهه إلى الوزير في نفس هذا المكان منذ بضعة شهور... وبينما كنت أبتسم في داخلي لهذا الخاطر، غمزني ألفريد فرج الكاتب المسـرحي المعـروف، وقد حضر باعتباره المشرف على الثقافة الجماهيريـة نائبـا لـ "سعد كامل"، وكـان يجلـس علـى يسـاري؛ لينبهنـي إلى ألا أعاود الهجوم بعد تلك المبادرة الطيبة من الوزير... لكن يبدو أن السيدة رعاية النمر مديرة قصر الجيـزة التـي كانت تجلس على يميني – بالغت في تقديرها لحسـن نوايـا الوزير، فقالت في عتاب رقيق مؤدَب للغاية بعد تحيتها لكلام الوزير إنها تندهش من أنه في الوقت الـذي يصـرح فيـه الوزير بتمسكه بنا، يجلس الآن في حجرة مجاورة المديرون القدامى على موعد مع سيادته...

وهنا انفجر الوزير غاضبا وكأنما فـاض كيلـه أو أراد أن يحطم عقدة الذنب التي تجعله في موقف الضعف أمامنا.. وقال بصوت مجلجل:

- أنا لست شيوعيا يا سـادة... ولسـت ماركسـيا.. قد أسمح بوجود بعض الماركسيين في وزارتي... لكن لن أسمح بالشيوعيين..

قالها وهو يدق زجاج المنضدة بقبضته حتى تكاد ينكسر، وخصلات شعره تتناثر على جبينه، ووجهه يتفجـر بـاللون الأحمر... وواصل قائلاً:

- وسوف أدق رأسي الأفعى (يقصد سـعد كامـل).. ولولا أنك يا رعاية مثل ابنتي لتصرَّفت معك بشكل آخر..

وبينما عقد الذهول لسان رعاية النمر وألسنتنا جميعا، راح كل من عبد المنعم الصاوي وحسن عبد المنعم وكيلا وزارة الثقافة، يتسابقان في استخدام براعتهما المكتسبة عبر سـنين في العمل كمرءوسين في الوزارة، لامتصاص غضب الوزير والاعتذار نيابة عن رعاية النمر.

ولم تمضِ أيام حتى كان سعد كامل قد أُبعِدَ إلـى وظيفـة بدار الكتب، وبعد ذلك بأسابيع تم فصله من الوزارة نهائيـا بحجة الانقطاع عن الحضور، وعين بـدلاً منـه الـدكتور عبد الحميد يونس أسـتاذ الأدب الشـعبي، وتـمَ الـتخلص من المديرين الشبان في كل قصور الثقافة باستثنائي.. وعـاد المديرون الكهول إلى قصورهم ومواقعهم.

أدركت أن عقد الزواج العرفي بين النظام الناصري وبين اليساريين قد انتهى باستتباب الوضـع الجديـد للنظـام بعـد الانتخاب، وقوي مركز جمال عبد الناصر مرَّة أخرى، وكان لا بدَّ أن يتخلص من اليساريين بعد انتهاء مهمتهم لكن بيـد ثروت عكاشة، إلا أن الغريب هو أن أحدا لم يقتـرب منـي أو يطالبني بأن أرحل.

وذات يوم من شهر يوليو... قررت أن أفعلهـا.. بيـدي لا بيد عمرو....!

***

(٢١)

ذهبت لأودع القصر ومن فيه.. كان الجميع في المسـرح الذي كانت تجري فيه التشطيبات النهائيـة. خرجـت إلـى الحديقة إلى امتلأت بالأنقاض، وفي ركـن منهـا – وسـط الأنقاض – رأيت سيارة القافلة: عجـوزا وحيـدة بائسـة، اقتربت منها أتأملها بدهشة، كأنني أراها لأوَل مرَة: عربـة رمادية جهمة متهالكة مثل آلاف العربات الحكوميـة، تشـبه عربات الجيش أيام الحرب العالمية الثانية... أبلاها الصـدأ والمطبات والأحمال التي تفوق طاقتها... هل هي حقًا التـي انطلقت منها تلك العاصفة على الريـف السـاكن عشـرات السنين؟. بدا لي فيها شيء أليف وحنـون، كبقـرة عجفـاء واسعة العينين أضناها التعب من شد المحراث والدوران في الساقية، فراحت تنظر إلى صاحبها الفلاح بعيـون واسـعة مليئة بالغبن والضراعة. لمست مقدمتها بيـد مرتعشـة ثُـم تركتها ومضيت مسرعا.

لمحت في الطرف البعيد من الحديقة ما تبقى مـن بيـت الزهور حيث كان يقام نادي الأطفال... تذكرت ذلك بدهشة، كذكرى قديمة تأتي من وراء السنين... حتى الأطفال كان لهم أيضا في هذا القصر مكان، مليء بالخضرة والزهور عـامر بالظلال... لقد ذبلت الزهور واختنقت الظـلال... تـذكرت بعض هؤلاء الأطفال وهم يعرضون عليَّ رسومهم السـاذجة الملونة، أو يتسامرون مع الشاعر محمد عفيفي مطـر بـين الحين والآخر؛ إذ كانت تربطـه بهـم صـداقة غريبـة، أو يجلسون في انبهار وشغف أمام "أبلة" "سهير شكري" وهـي تحكي لهم الحواديت في فتـرات فراغهـا مـن البروفـات المسرحية.. هل يصبح أحدهم يوما فنانًا أو شاعرا أو مناضلاً كي يوجِدَ مكانًا كهذا؟...

وكم منهم سوف يذكرون هذا المكان حين يصبحون رجالاً وسيدات؟...

جلست في الشرفة الفسيحة أمام قاعة المعارض والنـدوات، تداعت على خاطري صورة الفنانين الشـبان الـذين تفتحـت مواهبهم في مراسم القصر وعرضوا أعمالهم الأولى في هـذه القاعة مثل بكري محمد بكري، وحامد صقر، ومحمد الديب[٩].

وقفزت أمامي صورة الفنان عبد المنعم مطـاوع – ابـن دسوق الغارق في بحرين: بحر من العشـق للفـن والشـعر والحياة، وبحر من الخوف من الناس إلى حد الرعب، بينمـا يملك موهبة غير عادية في الرسم كانت تؤهله ليكون أستاذًا لجيل قبل أن يعمل بعض أساتذته بكليـة الفنـون الجميلـة على تدميرها وتدميره، وكادوا أن ينجحوا، لولا أن احتضنه القصر وأعطاه فرصة للتفرُّغ لفنه ومرسما يلملم فيه أشـتاته المبعثرة(١٠) .

كما تداعت على خاطري صور الشعراء الشبان، وكيـف كانوا يتقدّمون بقصائدهم على استحياء إلى مجلة طليعة كفـر الشيخ أو إلى عفيفي مطر فـي جماعـة الأدب، وانطلقـت حناجرهم بعد ذلك بلا تردُّد تتدفق بالشعر في ندوات القصـر وصفحات المجلات وحلقات الشوارع: مثل عبـد الصـبور منير وعلي قنديل(١١) وعبد الدايم الشاذلي، كان هو الحضـانة الدافئة لكل تلك المواهب والثغر الذي أبحرت منه إلى آفـاق الإبداع اللانهائية.

وطالع بصري من بعيد المبنى الجديد الشاهق للمسـرح، ناصعا كقلعة مهيبة في غبشة المسـاء الزاحـف الرمـادي الثقيل.. هل سيهدمونه أيضا؟ لا أظنُّ أنهـم قـادرون. إنـه صرح بِني ليعيش.

ودَّعت أعضاء الفرقة المسرحية دون أن نستطيع تبـادل الكلمات، وظلت يدي طويلاً قابضة على يد زغلول عبـد الله المشرف على القافلة... لم تكن هناك أي كلمـات تسـتطيع أن تعبر عما يجيش به صدري نحوه.. ورأيـت فجـأة مـن يندفع من خلف الكواليس نحوي ليحتضـنني مودعـا: كـان الفنان فاروق الفرا.. مهنـدس الـديكور بالفرقـة وزميـل الدراسة... والشهاب المتوهج بالموهبة والإخلاص للفرقـة.. ولم أكن أعرف أن هذه ستكون آخر مـرَّة أراه فيهـا فـي حياتي؛ فقد استشهد بعدها في حادث سيارة وهو ذاهب يومـا لإعداد ديكور جديد للفرقة.

وفي الصباح الباكر حملت حقائبي وسافرت إلى القاهرة. ومنذ ذلك اليوم لم تتوقف الأجهزة الرسميـة عـن تصـفية حسابها المرير معي عن تلك الأحداث.. لكـن هـذه قصـة أخرى..

الجزء الثاني

برج النور

الصامت يرفض

(١)

المكان : قرية "بقطارس" مركز أجـا محافظـة الدقهلية.

الزمان : أحد أيام الجمعة من شهر إبريل ١٩٧٨

الشمس العمودية تنصبُّ على الطريق المتـرب الضـيق الذي يتلوَّى مبتعدا عن القرية، بحذاء قنـاة صـغيرة وسـط الحقول، يتصاعد الصهد من التراب، يلفـح أقـدام الرجـال الثلاثة المنطلقين بعزم: رجلان بملابس مدنية تحـت سـن الأربعين بأعوام قليلة، وشاب يناهز العشرين بجلباب القرية.

كان الرجلان هما: حسن شعبان – عضو الفريق الثقـافي بوحدة التنمية الريفية وأنا، وكان الشاب أحد أبنـاء القريـة، اصطحبناه كدليل يوصلنا إلى القريـة الصـغيرة المجـاورة لقريته واسمها "ديرب بقطارس".. وعندما بلغناها بعد مسيرة عدة كيلو مترات، وجدناها شبه خالية، إلا من بعض الأطفال والنسوة: كان كل الرجال في المسجد يؤدُّون صلاة الجمعة.

ذهبنا من فورنا إلى هناك لنؤدي الصلاة معهم، ولنطـرح عليهم (المشروع) الذي أتينا من أجله عقب الصلاة. توضأنا ولحقنا بالمصلين ورأى الجمع المتراص في صفوف يسـتمع إلى الخطيب – رجلين غريبين، وهو أمر خليق بـأن يثيـر فضول القـرويين فـي أيـة قريـة ويجعلهـم يتسـابقون على استضافتهم، فما بالهم لو عرفوا أننا جئنا بأخبار طيبـة عن افتتاح فصول لمحو الأمية ومشروعات ثقافيـة أخـرى فضلاً عن المشروعات الاقتصادية والاجتماعية التي أعدَتهـا لهم وحدة التنمية الريفية الشاملة، التابعة لجهاز تنظيم الأسرة والسكان.. هكذا قلنا لأنفسنا.

انتهت الصلاة، ونهض زميلي مخاطبا أهل القرية وعرَفهم بهويتنا وبسبب مجيئنا وإذا بهم يسـارعون بـالخروج مـن المسجد دون حتى الانتظار لسماع بقية حديثه وهم يشـيحون بوجوههم وأيديهم!... وأشفق علينا نفر قليل مـنهم فوقفـوا يحاولون إرشادنا إلى من يمكنه مساعدتنا في مهمتنـا مثـل العمدة أو ناظر المدرسة (وكأنه أمر يخصنا وحدنا!) فانبرى أحد الأعيان صائحا فيهم كي ينفضوا عنا، قائلاً ومـن أدراه أننا نتبع الحكومة؟ أو أننا لا نتبع جهات معينة تريـد جمـع معلومات عن الفلاحين؟!

لم تكن الصدمة العنيفة وحدها هي التي أذهلتنا من هذا الموقف، بل كان أيضا إحساسنا القوي بأن في الأمر شيئًا غير عادي، ذلك أن القسوة والغلاظة التي عوملنا بهما لم تكونا قط من طبيعة الفلاح المصري خاصة عند تعامله مع الغريب... ابتلعنا مرارتنا وقد صممنا على اكتشاف الحقيقة، طلبنا من أحد الفلاحين اصطحابنا إلى مقهى القرية.. وهنا – بعد أن اعتدل مزاج الرجل على أنفاس عميقة من "الجوزة" – راح يحكي لنا حكايات كثيرة عن أفندية ودكاترة وستات صغيرات مثل الخواجات حضروا مرَّات عديدة من قبل وأشبعوا الأهالي بالوعود بمشروعات مثل التي تحدَّثنا اليوم عنها، كانوا يدخلون كل بيت ويكشفون جميع الأسرار، ويسألون كل رجل وكل امرأة أسئلة لا حصر لها عن كل شيء في حياتهم ويملئون بالإجابات عنها كروتًا لكل فرد من الأهالي ويتركونهم على أمل أن يحضروا قريبا لتنفيذ المشروعات التي وعدوهم بها.. وتمرُّ شهور ويحضر أفندية وستات آخرون ويقولون إن الأبحاث لم تكتمل بعد وينهالون عليهم بالأسئلة من جديد ويملئون الأوراق ويسددون الخانات ويمضون، ثُم يأتي غيرهم ليقولوا إنهم في انتظار الأموال

من الأمم المتحدة لتنفيذ المشروعات ويفعلون كما فعل مـن سبقوهم ويمضون.. ومرَ عامان دون أن يحـدث شـيء... حتى بات الأهالي يشكون في الأمر، واعتقد الـبعض أنهـا "شغلانه" يسترزق بها هؤلاء الأفندية ويشفطون نقود الأمـم المتحدة!

شرحنا للرجل حقيقة الأمر، وأننا لم نحضر اليوم لـنملأ أوراقًا، وإنما لنبدأ تنفيذ مشروعات ثقافية، ونجهشز لافتتـاح مراكز للتدريب المهني للرجال والسـيدات ومركـز ثقـافي ورياضي للشباب. فقط نحتاج إلى تعاون الأهـالي، وطلبنـا منه أن يدلنا على بعض الشباب المتعلم بالقريـة، أو علـى الأشخاص الذين يمكننا التفاهم معهم حتى يسـتطيعوا إقنـاع الفلاحين..

تركنا على أن يعود إلينا حـالاً ومعـه بعـض المتعـل مين المهتمين (بهذه المواضيع) وانتظرنا وطال انتظارنا ولم يحضر أحد حتى ولا زبون يطلب شيئًا من المقهى، وعنـدما سألنا صاحبة المقهى عن الشاي الذي طلبنـاه منـذ سـاعة اعتذرت بأن الموقد معطل!.

***

(٢)

وقصة المشروع تبدأ قبل ذلك بنحو عامين حين دعا جهاز تنظيم الأسرة والسكان – بالاتفاق مع جهاز التنمية السـكانية بالأمم المتحدة – فريقًا من أساتذة الجامعات المتخصصـين[١] إلى إعداد بحث عن نمط للتنمية الريفيـة الشـاملة يصـلح للتطبيق في القرية المصريـة، واختيار موقع نموذجي تُجرَى فيه التجربة في بعض القرى. وبعد وضع الإطـار النظـري للمشروع على ضوء التجارب المختلفة في التنمية بالبلـدان النامية، والظروف السائدة في واقع الريف المصـري – تـمَ اختيار ثمانية قرى صغيرة يضمها مجلس قروي "برج نـور الحمص" بمحافظة الدقهلية كموقع للتجربة.

وبدأت الدراسات الميدانية في الموقع بالأسلوب الأكاديمي الوقور، من تصميم استمارات البحث وتطبيقها على الأهالي لجمع البيانات التفصيلية عنهم ووضع الخطط على أساسـها. ولم يكن هذا أمرا مألوفًا بالنسبة لأبناء القـرى المصريـة الذين لم يتح لهم من قبل أن رأوا مثل هذا الحشد من الأفندية والآنسات الحضريات اللاتي لا يجدن غضاضة في السـؤال

عن أدق الشئون الداخلية للأسرة الريفية، ويبدو أن البـاحثين – في محاولتهم لإزالة التحفظ الذي ووجهوا به من الأهـالي عند جمع المعلومات – قد أغرقوهم بالوعود بأن الخيـرات في الطريق... لكن لان الخير لا يأتي بهذه البساطة فقد طال الانتظار – ولم يأتِ شيء، حتى مل الأهالي وفقـدوا الثقـة في أي كلام يقال، ومضغنا نحن أعضـاء الفريـق الثقـافي ثمرته المرّة فيما بعد، ظهر يوم الجمعة المشهود ذاك.

ولم تبدأ علاقتي بالمشروع إلا في الثـامن مـن أكتـوبر ١٩٧٧ حين دعِيت ضمن مجموعة مـن الشخصـيات لهـا إسهامات متنوعة في الحياة الثقافيـة، للمشاركة فـي حلقـة بحث حول التنمية الثقافيـة من خلال المشروع.

كان السؤال المطروح هو: ما هي الثقافة التي نريدها؟

إلا أن سؤالا آخر فرض نفسه قبل الإجابة على السـؤال الأول وهو:

ما هي الثقافة؟

وكانت هناك ورقتان مقدَّمتان إلى حلقة البحث تتضـمنان محاولة الإجابة على ذلك السؤال وما تـلاه مـن أسـئلة[٢] ، وقد عملت المناقشات التي دارت علـى توسـيع قنواتهمـا وإضافة قنوات وأبعاد جديدة إليهما، وفي نهاية اللقاء الثـاني لحلقة البحث في ١٧ أكتوبر ١٩٧٧ كان قد تبلـور مفهـوم علمي للثقافة يتلخص فـي أنهـا: بنـاء مركـب يحتـوي على المعرفة والعقائد والقيم والتقاليد وكل ما يشـكل إدراك الإنسان في مجتمع ما وموقفه من العالم من حولـه، وهـذا البناء المركب ليس إلا انعكاسا للمواقع المادي الذي يعيشـه المجتمع؛ وبالتالي فإن أي تغيير في ذلك الواقع المادي يستتبع تغيرا ثقافيا بدرجة أو بأخرى.

وكان هذا يعني أننا أمام ثقافة موجودة بالفعل في القـرى الثمانية المحدَّدة لموقع التجربة، وهي مـا تُسـمى بالثقافـة التقليدية تتمثل في قيمها السائدة ومعتقداتها المتوارثة وتراثها الشفاهي (في الأدب الشعبي) وفي مواقف الصراع التاريخية التي مرَّت بها وحفظتها ذاكرة الأجيال، وربما أضافت إليهـا أبعادا جديدة، كما تتمثل هذه الثقافة في التراث المادي للقرية

الذي يشكل (فنها الشعبي) وتظهر سماته في أشكال العمـارة والنسجيات والأثاث والوشم، وفي طابع الاحتفالات الجماعية المختلفة.

وكان لا بدّ من التعرُّف على كل ذلك ودراسته قبل وضع أية مشروعات للتنمية الثقافيـة بالموقع، فضلاً عن التعـرُّف على الخصائص الاجتماعية والسكانية السـائدة فيـه مثـل التركيب الطبقي ومظاهر السلوك الشعبي.

ومن ناحية أخرى فإن الحديث عن تنمية ثقافية لا يمكـن أن يستقيم بمعزل عن اتجاه التنمية المادية الشـاملة المـراد تحقيقها: ذلك أن كل تجربة تنموية مادية تحدد اتجاه وشـكل التنمية الثقافيـة بل ولا تستطيع هذه العملية المادية أن تتقدَم ما لم تسبقها وتواكبها عملية تغيير ثقافي يرتكز على فلسفتها الرئيسية، فإن تقبل التغيير في الواقـع المـادي واسـتيعابه من جانب الأهالي مرهون بدرجـة التغييـر فـي أفكـارهم ومعتقداتهم واستجابتهم العقلية والنفسية؛ وهـذا مـا يجعـل من عملية التنمية الثقافيـة أخطر العوامل وأولاهـا بالجهـد في عملية التنمية الشاملة.

وقد كان الإطار العـام لمشـروعات التنميـة الشـاملة – الذي أُطلِق عليه التنمية القاعدية – يقوم على عدة محاور، أهمها:

١- تطوير العلاقات الإنتاجية في الريف المصري، من خلال تدعيم الديمقراطية في مجال التعاون الإنتاجي ودعم التنظيمات الخاصة بالعمال الزراعيين.

٢- تحديث وتنويع الإنتاج في الريف.

٣- إحداث تغييرات تواكب كل ذلك مثل: محو الأمية، التدريب الوظيفي، خلق وعي يتسق مـع أهـداف التنمية ووسائلها، إقامة نظام كفء ومتقدم للتعلـيم، توفير الرعاية الصحية، تدعيم المشاركة الشعبية في نظام الحكم المحلي، رفع مكانـة المـرأة وزيـادة مساهمتها كعضو منتج في المجتمع، تحديث القرية عمرانيا وتحسين ظروف الحيـاة فيهـا وتـوفير إمكانات الطموح الاجتماعي بها للحد من معـدلات الهجرة إلى خارجها[٣].

انطلاقًا من هذا الإطار الواسع اتفق المشاركون في حلقة البحث على مجموعة أهداف عامة للتنمية الثقافية واضعين في الاعتبار – في نفس الوقت – أن الثقافة هدف مطلوب في حد ذاته باعتبارها مسألة تتعلق بالوجود الإنساني الذي هو هدف رئيسي لأي تنمية، ومتجاوزين أيضا لبعض أبعاد ذلك الإطار التنموي السالف الذكر، باتفاقهم على أن التنمية لا تعني التحديث بقدر ما تعني التقدم الإنساني الذي تصنعه المجتمعات نفسها من خلال تطوير قدراتها الذاتية، لحفز طاقات الإبداع والابتكار والاستنباط بين أبنائها نحو تحقيق ناتج أمثل لمواردها المحلية، وتأصيل شخصية متميزة ومستقلة لها[٤] .

وتتلخص هذه الأهداف العامة للتنمية الثقافية في:

١- تعميق قيم التحرُّر والاستقلال.

٢- تسييد التفكير العقلي في مواجهة العقلية الخرافية.

٣- حفز روح المبادرة والخلق والإبداع نحو بلورة شخصية متميزة.

٤- التأكيد على قيم الجماعة والمشاركة والمساواة.

٥- تجاوز العزلة الحضارية للقرية عن المدينة، والاتصال بالثقافة الإنسانية العالمية.

٦- استخلاص القيمة الإيجابية من التراث وتطويرها.

ولتحقيق هذه الأهداف تمَ الاتفاق على أسلوب ديمقراطي، قائم على مشاركة الأهالي، وعلى توظيف أمثـل للإمكانـات الذاتية للموقع: من قنوات للاتصـال كالتجمعـات الشـعبية الأسبوعية والموسمية ومظاهر الحياة اليومية، ومن مثقفـي وفناني القرية، ومن تراث أبداعي وثقافي تمارسـه بالفعـل مواهب محلية، ومن قيادات شعبية في الموقع توفر لها قـدر من الوعي والاستعداد لتبني برنامج للتنمية الثقافيـة على أن يتمَ إدخال عناصر الثقافة الخارجيـة بواسـطة عـدد مـن المتخصصين مع الحرص على تأكيـد الشخصـية الذاتيـة المتميزة للموقع(٥).

كانت هذه الاتجاهات العامة في التنمية – سواء الثقافيـة أو الاقتصادية أو السياسية – محل إجماع من كافة أعضـاء فريق البحث والمشاركين في حلقات النقاش، الـذين كانـت تجمعهم أرضية ديمقراطيـة مشتركة، لكن الرجـل الوحيـد الذي كان يأخذ جانب التحفظ إزاء الفلسفة التي انطلقت منهـا تلك الاتجاهات هو الدكتور عزيز البنداري – رئيس جهـاز تنظيم الأسرة والسـكان – الـذي كـان يتبنـى المشـروع ويستضيف هذه الحلقات ويشارك فيها بالمناقشة مـن حـين

لآخر دون أن يفرض عليها رأيه. والواقع أنه لم يكن ينطلق في تحفظاته من مجرد كونه مسئولاً عـن الجهـاز وجـزءا من النظام، بقدر ما كان ينطلق من رؤية فكرية مختلفة، تقوم – في مضمونها الأخير – على أساس أن التنميـة يجـب أن تبدأ من الفرد لا من الجماعة، والتنمية التي يعنيهـا تنميـة مادية بالدرجة الأولى؛ مما يستدعي حلولاً عملية تحقق عائدا ماديا سريعا يرفع مستوى المعيشة للفرد والأسـرة ويغـذي طموحاتها للارتقاء الذاتي، ويعود بالتالي على تحقيق أهداف تنظيم الأسرة والحد من الزيادة السكانية ومشاكلها المعقـدة. وكان يرى المثل الأعلى للتنمية في أنماط بعض المجتمعـات الأوربية الغربية مثل سويسرا وبعض الأنماط الآسيوية مثـل اليابان لكنه لم يكن يطرح أفكاره في شكل مسـلمات بقـدر ما كان يطرحها في شكل افتراضات وتساؤلات، ولـم يكـن يفرض حجرا على الرأي السائد محترما روح البحث العلمي التي كانت تسود فريق البحث، إلا أن تهوين الفريق من شأن هذا التناقض الفكري المبكر بينه وبين رئيس الجهاز قد ساعد فيما بعد على اتساع الفجوة بينهما وغذى المناخ العام الـذي ساد الجهاز والذي اختنق المشروع بداخله بعد عامين.

(٣)

كُلفت في شهر فبراير ١٩٧٨ بالإشراف علـى مشـروع التنمية الثقافيـة، وبدأت في تشكيل الفريق الثقافي (٣)، وقبل أن ينتقل الفريق إلى قرى الموقع للتعرُّف على الخصـائص الثقافيـة التي سبق الإشارة إليها، اهتمَ بأن يقف على آخـر ما وصل إليه فريق البحث الرئيسي للمشروع فيمـا يتعلـق بالتركيب الطبقي والمستوى التعليمي والخدمي، والخصائص السكانية الأخرى وهي المسائل التي استغرق بحث الفريـق الرئيسي لها ما يقرب من العامين ووقفنا على نتـائج عامـة مؤدَاها:

- أن غالبية سكان الموقع تعمل بالزراعـة كنشـاط فردي أساسي.
- أن هذه المنطقـة كانـت فـي الماضـي القريـب من المناطق التي يتغلغل فيها الإقطاع.

- أن هناك تناقضا حادا في توزيع الحيازة الزراعيـة (مصدر الدخل الرئيسي بالقرية) بين جماعات أشباه المعدمين وبين كبار الحائزين ودون الـدخول فـي التفاصيل والأرقام فـإن نسـبة الحـائزين (ممـن يحوزون من ١ – ٥ فدان) تصـل إلـى حـوالي ٩٧,٥٪، بينما تصل نسبة الأغنياء (ممن يحوزون ٥ أفدنة فأكثر) حوالي ٢,٥٪.
- أن نسبة الأمية الكاملة في القرى الثمانية تتراوح بين ٧٠ – ٩٠٪، ونسبة من يقرءون ويكتبون لا تتعـدَى ١٧٪. ونسبة المؤهلين تأهيلاً متوسطًا وعاليا ٩٪.
- أن هناك تناقضا حادا بين مجموعة القرى نفسها في توزيع الخدمة مثل المدارس والكهربـاء والطـرق المرصوفة والنوادي الرياضية: فبينما تحظى قرية واحدة (برج نور الحمص) بسبع مدارس بالإضافة إلى وحدة ريفية متكاملة من ربع قرن وكهرباء ونادٍ رياضي وطريق رئيسي مرصوف يربطهـا بعـدَة مدن، نجد قريتين مثلاً (شبرا البهو – كفر ديـرب) محرومتين من أي مدارس فضلاً عن حرمانهما من الكهرباء ومعظم الخدمات الضرورية شأن معظـم قرى المجموعة.

وانتقلنا إلى موقع التجربة لأوَل مـرَة فـي ١٣ مـارس ١٩٧٨، وتتابعت زيارتنا للقرى المختلفة باحثين عن السمات المميزة لذلك التجمع السكاني في مجالات الثقافـة التقليديـة السائدة أو في الجهود المباشرة لأيـة أنشـطة ثقافيـة مثـل محو الأمية أو المسرح أو الفنون الأخرى.

كان استقبال الأهالي لنا يتفاوت من قرية إلى أخرى بـين الترحيب المستبشر بخير نحمله وذلك في القرى التي لم تعرف كثيرا عن المشروع، والتي تتلهف على أي عون في الجوانب الاقتصادية والخدمية المحرومـة منهـا، وبـين الانصـراف المتشكك والثقة المفقودة؛ وذلك في القرى التـي كثـر تـردُد الباحثين بالمشروع عليها في السنتين السابقتين، وإن لم يصـل الأمر إلى ما وصل إليه في تلك الذروة الدرامية بقرية ديـرب بقطارس، وبين الإيجابية المتعطشة، من جانب الشباب المتعلم والهواة في بعض القرى، لدعم محاولاتهم الفنيـة والأنشـطة الاجتماعية والرياضية... وربما كان وصولنا إلى هذه النتيجة بفضل الدرس الذي أخذناه من تجربة (صلاة الجمعة) الأليمة.. إذ إننا تعلمنا منه ألا ندخل قرية إلا ونحن على معرفـة بمـن نتجه إليهم في مواقعهم وأماكن تواجدهم خاصة مـن الشـباب المتعلم المشهود له بالنشاط؛ حيث نقيم معه حوارا مفتوحـا لا نقدم فيه من الوعود إلا ما نستطيع أن نفي بها.

وكانت المحصلة السريعة للإطلالة الثقافيـة على القرى تنبئ بما يأتي:

- أن هناك بعض الجهود المحـدودة لمحـو الأميـة في اثنتين من القرى هما (برج النـور – والبهـو فريك) في الإطار التقليدي لجهـود وزارة التربيـة والتعليم، ولكنها جهود متعثـرة لا تعـدو الجانـب الشكلي الذي يحقق مصلحة مشتركة بين طـرفين: الأول بعض المدرسين المستفيدين مـن المكافـآت التي تصرفها الوزارة، والثاني بعـض الدارسـين والدارسات الذين يسعون للحصول علـى شـهادة بمحو أميتهم لتقديمها كمسوغ للتعيين فـي مصـنع المعلبات الغذائية القريب في مدينة أجـا، وكانـت الامتحانات النهائية صورية في معظمها، إلى حـد أن الإجابة في امتحانات بعض الدارسين كان يقوم بها – كما علمنا – بعض أقربائهم مـن المتعلمـين نيابة عنهم... ولعل هذا ما جعل أحد نُظارالمدارس الابتدائية التي تقام بها فصول من هذا النوع يحاول إحباط جهودنا في هذا المجال لكن ذلك لا ينفي أن هناك جهودا مخلصة كان يقوم بها أفـراد جـادون مثل ناظر مدرسة البهو فريك.

- باستثناء القرية الرئيسية في هذا التجمـع السـكاني (برج نور الحمص) والقرية التالية لها في الأهميـة (بقطارس)، فان الصحف اليوميـة أو الدوريـة لا تصل إلى تلك القرى، ناهيك عن الحرمـان مـن وجود أي مكتبـات عامـة أو وسـائل تثقيفيـة أو ترفيهية، فيما عدا بعض أجهزة التليفزيـون التـي تعمل بالبطارية السائلة البدائية يملكها عـدد مـن الأهالي يعدُّون على الأصابع، أو بعض أصـحاب المقاهي الذين يتقاضون نقودا من المواطنين مقابل مشاهدتهم للتليفزيون.

- هناك "حالة مسرحية" تستقطب طاقات مجموعـات من الشباب المتعلم وبعض الفلاحـين الناضـجين أيضا، وهي حالة إبداعية – اجتماعية تخط لنفسـها أحيانًا مسارا موسميا منتظما (في الإجازة السـنوية صيفًا للطلبة كما في قرية البهو) أو تخـط لنفسـها مسارا يرتبط ببعض المناسبات أو الموالد (كما في حالة فلاحي برج النور).. وهذه "الحالة المسرحية" الفريدة تستمدُ مشروعيتها وحوافزها من مجتمعهـا الذي انبثقت عنه؛ حيث ينظر الأهالي إلى الممثـل

نظرة الاحترام، باعتباره شخصا ذا قدرات متميزة حتى أنهم يستمرُّون في تلقيب بعض الممثلين فـي تعاملهم اليومي بأسماء أدوارهم فـي المسـرحيات التي أدُّوها لزمن طويل.. وقد يستدعى الأمـر أن يقوم أحد الرجال بتمثيل دور امرأة؛ لصعوبة قيـام امرأة به – ومع ذلك لا تتأثر مكانة ذلك الرجل بين قومه بعد انتهاء عرض المسرحية بل يحتفظ بلقـب التبجيل قبل اسمه (الشيخ فلان)، والأهم من ذلـك أن بعض المسرحيات يقوم بتأليفها الفلاحون أنفسهم دون نص مكتوب، وهو شكل أقرب إلى "الكوميديا المرتَجلة" وعادة تُستمدُ من بعض السـير الشـعبية المشهورة مثل أدهم الشرقاوي بعد تكييفها مع واقع القرية وتضمينها مواقف ساخرة وشخصيات حيـة ممن يعيشون بينهم من الأهالي. أمـا المسـرحيات التي يقوم بتأليفها المتعلمون في بعض القرى فتكاد تجمع بينها فكرة مشتركة؛ هي الاستشهاد في سبيل الوطن، وتقبل الفلاح لنبأ استشهاد ولده في الحرب ضد أعداء بلده بالفخر والصبر.

- هناك بعض الشباب الموهوبين في الفنون التشكيلية، وفي الاختراعات العلمية بقرية بقطارس كان أحدهم نحاتًا لم يتلقَ أية أصول للنحت لكنه قدَم لنا نمـاذج مدهشة من تماثيله، وكـان آخـر رسـاما يشـكل بالألوان المائية تكوينات شديدة الغرابـة والتميـز، والتقينا بشاب ثالث توصل إلى نتائج عـن الطاقـة الشمسية والكهربائية بجهوده الذاتية، وكان من بين "مخترعاته" حذاء للمشلولين يسير بالكهرباء، وهـو طالب بالمدرسة الثانوية الصناعية، ولا أنسى هـذا المخترع الصغير وهو يعرض نتائجه العلمية على المحرر الصحفي لنوادي العلوم بجريـدة الأهـرام حين حضر معنا إلى القرية، والشاب يكاد يـذوب خجلاً في بيجامته الفقيرة والصـحفي مـذهول لا يصدق أنه صاحب هذه التجارب.

- لفت أنظارنا انتشـار أسـاليب العـلاج الشـعبي الممزوج بالسـحر؛ إذ إن بالمنطقـة عـددا مـن "المشايخ" يمارسون تلك الأساليب مما يـؤدي إلـى كثير من حالات الوفاة... والمدهش أن الرجل الذي أنبأنا بهذه الظاهرة – وهو لـم يـتخط الأربعـين ويعمل وكيلاً للمدرسة الابتدائية بإحدى القرى ويعدُّ من أبرز مثقفيها – استضافنا في بيته ليرينا كيـف تعالج زوجته بنفس الطريقة، وأطلعنا على الأحجبة والأباريق الغريبة والسوائل المعدَّة للاستخدام ضمن العلاج، ودعا زوجته لتحكي لنا تفصيليا ما تشـعر به عندما يتلبسها (سيدها) الذي يـتقمص صـورة جدي وما يقوله لها الشيخ... وطلب منا أن نقنعهـا بالعدول عن اقتناعها بذلك إن كنا نستطيع... ولمـا سألناه إن كان يعتقد هو شخصيا في ذلـك... بـدا عليه التردُّد ولم نخرج بإجابة واضحة.

- لاحظنا أن قريتين من قرى المجموعـة لا يفصـل بينهما إلا شارع ضـيق طويـل تتـراص بيـوت القريتين على جانبيه ومع ذلـك فـإن نوعـا مـن المقاطعة التقليدية الصامتة يفرض نفسه على أبنـاء الجانبين لخلافات تاريخية بينهما، ولم يسـتطع أن يذيب هذا الجدار شيء حتى حكمة الشيوخ ووسطاء الخير، وكل جانب يتحفـز للآخـر ويتصـيد لـه الأخطاء، إلى أن حدث شيء جديد: فقـد اشـترى صاحب مقهى صـغير بإحـدى القـريتين جهـاز تليفزيون يعمل بالبطارية السائلة؛ بغرض استثماره في تحصيل قـروش مـن الفلاحـين فـي شـكل مشروبات، وبدأت ظاهرة جديدة: أخذ الأطفال أولاً يتسللون من القرية الأخرى لاختلاس النظـر إلـى الجهاز عن بعد.

وبعد فترة تلاهم الصبية وتسرَّبوا داخل المقهـى مضـحين بقروشهم النادرة، وأخيرا حسم الشباب تردُّدهم واجتازوا "الحدود" إلى الجانب الآخر تلبية لنداء التليفزيون العجيب ضاربين بمقاومة الأمية عرض الحائط... وأصبحت الظاهرة واقعا جديدا هدم في هدوء ما بقي من جدار القطيعة بين القريتين.

وكان من الصعب أن نتعامل مع أهالي المنطقة بصـفتنا أعضاء الفريق الثقافي؛ لأن كلمة الثقافة بالنسبة لهـم نـوع من التجريد الغامض، لهذا فقد كانوا يتعاملون معنا باعتبارنا "رجال المشروع" والمشروع هو التنمية الشاملة الذي تمولـه الأمم المتحدة ومن ثَم فقد كانوا يصرُّون على أننـا منـدوبو هيئة الأمم المتحدة وهي الجهة الوحيدة الجديرة بالثقـة فـي نظرهم، والتي يضفي انتساب المشروع إليها صـفة الجديـة عليه، وبالتالي فنحن بالنسبة لهم مسئولون عن كافة الجوانب الاقتصادية والزراعية والصناعية والتنمية الأخـرى التـي وعِدوا بها من قبل ولا يهمهم إن كان لنـا اختصـاص بهـا أم لا... لقد استيقظت الآمال النائمة عندهم من جديد وتعلقوا بها في لهفة.. وهكذا وجدنا أنفسنا في موقف حرج للغايـة؛ لأن الوضع في جهاز تنظيم الأسرة والسكان لـم يكـن قـد اتضح بعد بالنسبة لتنفيذ تلك المشروعات، وكان الأمر يحمل في طياته مخاطر انتكاسة أخرى في استجابات الأهالي نحـو المشروع فيما لو تأخرنا في تقديم عمل ما، بعد كـل الـذي عانيناه لاستعادة ثقتهم المفقودة...

(٤)

كانت الصورة قد اتضحت أمامنا بما يكفي لوضع خطـة للتنمية الثقافيـة... وفي شهر مايو كانت الخطة قد اكتملـت وقُسمت إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى : تبدأ من أوَل يوليو ١٩٧٨ وتنتهي في آخر يونيو ١٩٧٩.

والمرحلة الثانية: تبدأ في أوَل يوليو ١٩٧٩ وتنتهـي فـي منتصف عام ١٩٨٠.

استهدفت الخطة – في بعدها الاستراتيجي – تغيير أنماط الحياة والتفكير والقيم السائدة لدى سكان الموقع؛ من أجل دفع عوامل التطور والتنمية وإنضاج الوعي بمصالحهم وتحريـر طاقاتهم وتعميق استقلالها والتزامها معا بـروح ومصـلحة الجماعة.

والوصول إلى ذلك يتطلب التحرُر – في نفس الوقـت – من التخلـف الاقتصادي – والاجتماعي؛ أي إن المشـروع الثقافي يرتبط ارتباطًا عضـويا بكافـة جوانـب المشـروع التنموي.

ويقوم المشروع الثقافي على خمسة محاور رئيسية:

- المحور الأول: هو الارتقاء بالوعي، ويتمُ تحقيقه من خلال مجالين:

١- محو الأمية.

٢- وسائل الثقافة: مثل السينما والمسرح والتليفزيون والمكتبات العامة والمراكز الشبابية والثقافية.

- بالنسبة لمحو الأمية: التزمت الخطة بمحو الأمية الهجائية لأبناء الموقع – خلال عامين – من تتراوح أعمارهم بين ١٥ – ٣٠ سنة، وهي السنُ الملائمة للاستيعاب والإنتاج، والتي سيتوقف عليها اتجاه التنمية في المستقبل، وذلك من خلال عشرين فصلاً دراسيا في القرى الثمانية، ومن بينها فصل واحد على الأقل للسيدات في كل قرية... وراعت الخطة أن يرتبط التعليم بمراكز التدريب والإنتاج كحافز للإقبال على فصول محو الأمية من جهة، ومن أجل خلق فرص عمل وخبرة جديدة من جهة أخرى. كما راعت أن يقوم منهج التدريس على أساس يرتبط بواقع القرية ومشكلاتها ومتوخيا

أسلوب الحوار والمناقشة مع الدارسين بعيدا عـن الأساليب التقليدية التي ثبـت فشـلها وذلـك بعـد تقسيمهم إلى مستويات مختلفة تبعا لدرجـة الأميـة ومراحل العمر ورغبـات التـدريب واختيـارات الدارسين لرفاقهم في الفصول على ضـوء نتـائج استمارة استبيان خاصة تُطبق على الدارسين.

أما المدرسون فقد كان الاتجاه هو أن يختَاروا من الشباب المثقـف من طلبة الجامعـات أو الخـريجين الجـدد بعـد انتظامهم في حلقة تدريبية لا تقتصر على الجوانب الثقافيـة وإنما تشمل التوعية الشاملة بأهداف التجربة، ويرتبط بـذلك نظام متكامل للإشراف والمتابعة والتقييم، أما الحوافز المادية فقد كان ترتيبها يأتي في النهاية على أساس النتيجة التعليمية التي يقدمها كل مدرس من حيث عدد الناجحين ومستوياتهم.

واختارت الخطة بشأن الوسائل التعليمية أسلوبا يعتمد على الطرق الحديثة مثل استخدام الفـانوس السـحري والرسـوم الإيضاحية والتسجيلات الصوتية لتقديم مشاهد حية من البيئة ومن خارجها، وتقديم مقطوعات شعرية وتمثيليـة تواكـب كتاب الدارس الذي سيتمُ تأليفه ليتناسب مـع واقـع القريـة وفلسفة المشروع.

- أما عن الوسائل الثقافيـة، التي تعمل علـى ربـط السكان بما يجرى في العالم الخارجي ونقل القـيم والأفكار الجديدة إليهم... فقد تضمنت الخطة تزويد الموقع بجهازين للعرض السـينمائي فـي السـنة الأولى، أحدهما ثابت بصـالة الإرشـاد بالقريـة العاصمة، يدار محليا ويتـولى الجهـاز مسـاعدته بالأفلام والمعلقين السينمائيين، والثاني متحرك بين القرى الباقية ليعرض في الهواء الطلق، ويعدُّ أبناء الموقع تدريجيا لإدارته وتولي مسئوليته علـى أن يعمم في السنة التالية إمداد كل قرية بجهاز عرض سينمائي مسـتقل مـع التوجيـه الثقـافي الـلازم والمصاحب لعروضه.

كما تضمنت الخطة تزويد كل مركز من مراكز الشـباب بقرى الموقع بجهاز تليفزيون ومكتبة عامة تضمُّ ألف كتـاب وكذلك إنشاء مسرح متنقل يمكن إقامته في الهـواء الطلـق في أية قرية ليعرض عليه أبناء الموقع أو يقدَم عليه أي نشاط مسرحي من خارج المنطقة.

- المحور الثاني للخطة: هو رفع حواس التذوُّق الفني لدى أبناء الموقع، والكشف عن الطاقات المبدعـة وتنمية الثروة الأساسية الضائعة فيه وهي الإنسـان بإشباع حاجته إلى الفن وإتاحة كل فرص الإبـداع له.

ويتمُّ تحقيق هذه الأهداف من خلال تكوين فرق وجماعات للهواة في الفنون المختلفة مثل المسـرح والفنـون الشـعبية والفنون التشكيلية تنطلق مما هو قائم مـن نشـاط إبـداعي، وتعمل على دفعة وتطويره.

بالنسبة للمسرح كان الطموح هو تكـوين ثـلاث فـرق مسرحية في القرى الرئيسية، وتطوير القدرة لدى أعضـائها على التأليف الجماعي وعلى معالجـة القضـايا التـي تهـمُّ مجتمعهم من خلال أعمالهم، ثُم إقامة مهرجان فنـي شـامل تشارك فيه جميع الفرق وتُرصد له الجوائز، ويتمُّ بعد ذلـك الانتقال به إلى المدن والعواصم؛ تدعيما لثقة هؤلاء الفنـانين في أنفسهم وصقلاً لمواهبهم على محكات خارجية.

أما عن الفنون التشكيلية فقد كان الطموح يتطلع إلى تنمية المواهب القائمة في مجالات الرسم والنحت، وإلى زراعة أنواع فنية جديدة مرتبطة بالبيئة ومد جذورها في أعماق جيل جديد من أبناء الموقع من الصبية والفتيات وتكون لها في نفس الوقت وظائفها النفعية في حياة الناس مثل: سجاد الزينة، ومنتجات الخزف، ومنمنات التطريز والوشي، والنقوش الجدارية على واجهات البيوت والعرائس والدُمى الخشبية على أمل أن تتفوَق كل قرية في المستقبل بإنتاج فني متميز يكون دالاً عليها، وأن يقام في القرية العاصمة معرض دائم لتلك المنتجات يجذب أبناء القرى والمحافظات الأخرى.

- المحور الثالث – وهو التدريب والإنتاج: ويقوم على إنشاء مركز أو أكثر لهذا الغرض يرتبط باحتياجات الموقع لبعض الحرف البيئية ذات البعد التشكيلي والجمالي مثل الكليم والخزف والحصر والنجارة والتريكو والتفصيل... ويتحقق عن طريق ذلك عدة أغراض:

فمن ناحية: ستكون حافزا للانضمام والانتظام في فصول محو الأمية، ومن ناحية أخرى ستعمل على خلـق طاقـات وخبرات إنتاجية وفرص عمل متنوعة، ومن ناحيـة ثالثـة ستعمل على خلق طابع مميز للمنتجات الفنيـة لكـل قريـة والارتقاء بأذواقها فضلاً عن توفير احتياجات الأهالي لتلـك المنتجات بأسعار مناسبة وبأذواق فنية ترتفع بحسهم الجمالي كما تؤصل الوظيفة الاجتماعية للفنون التشكيلية.

- المحور الرابع: وهو تربية القيادات الشبابية بمراكز الشباب لتحمل مسئولية المشاريع الجديـدة وتنميـة روح المبـادرة والشـورى والمواجهـة والنقـد والانتخاب المباشر، ويتمُ كل ذلك من خلال مراكز الشباب وجمعيات خدمة المجتمع التي ستُعدُ نقـاط ارتكاز ثقافية للأنشطة المختلفـة يتـولى الشـباب قيادتها بعد إجراء انتخابات حرَة لمجالس إدارتهـا وهي المهيأة لتكون همزة الوصل بين جهاز التنمية الريفية وبين الجماهير، ويمكن أن تنبثق عن هـذه المنظمات لجان ثقافية مساعدة تنهض بالمسـئولية التنفيذية بعد أن تنتهي مدة المشروع.

ويستدعي ذلك تدعيم تلك المراكز والجمعيات بالمعونـات لتنشيطها مثل المكتبـات والصـحف والأدوات الرياضـية وأجهزة التليفزيون والجوائز الرمزية للمسابقات بين مراكـز القرى المختلفة مما يثير التنافس البناء فيما بينها.

- المحور الخامس: هو اجتياز الهـوَة بـين الريـف والحضر عن طريق نقل ما يمكن نقله من خبرات ووسائل ثقافية وأجهزة اتصال من العاصـمة إلـى المواقع: مثل المعارض الفنية والعلميـة والفـرق الفنية الزائرة، وتنظيم زيارات لبعض العناصر من أبناء الموقع إلى القـاهرة والإسـكندرية وغيرهـا للاطلاع على المعارض والمسارح ومظاهر التقدم والمواقع الأثرية والحضارية.

كما يستدعي ذلك المحور دراسة أنماط القيم والمعتقـدات السائدة وتأثيرها على إمكانات التغييـر والتطـوُر وكيفيـة التخلص من أضرارها.

***

(٥)

لم يعد باقيا بعد ذلك إلا تنفيذ هذه الخطة بعد أن أُقِرَت من فريق البحث الرئيسي لمشروع التنمية، وبعد أن ووفق علـى الميزانية اللازمة لها، وقد توطدت علاقات الفريـق الثقـافي بأبناء الموقع وقياداته التنفيذية والشعبية حتى ربطـت بيننـا صداقات شخصية، وأصبح الجميع يتساءلون بقلق عن موعد التنفيذ.

واستطاع المخرج المسرحي عباس أحمد – عضو الفريق – أن يمتص بعض ذلك القلق باحتوائه للعناصر الموهوبة في التمثيل والغناء وتجميعها في عدة فرق في ثـلاث قـرى – ومنها فرقة الفلاحين – انشغلت على الفـور فـي التـأليف الجماعي لأعمال مسرحية.

إلا أن جهاز تنظيم الأسرة والسكان لم يجِبْ بوضوح على أسئلتنا عن الاعتمادات المالية اللازمة للخطة أو عن الجوانب الإدارية لتنفيذ المشروعات، أو عن اقتراحاتنا بتكوين هيكـل مالي وإداري خاص بالمشروع يكون همزة الوصل بين فريق البحث وبين إدارة الجهاز، ثُم بـين الاثنـين وبـين موقـع

المشروع، كل ما كان يصلنا من رد من المسئولين الإداريين بالجهاز هو مطالبتنا بأن نكتب إليهم باحتياجاتنا تفصيليا، وأنهم سوف ينظرون في توفيرها حسب اللوائح الحكومية، ومع أننا لبينا طلبهم فلم يتم إنجاز يذكر.

وأخذت شهور الصيف – التي كان المفترض أن تعجَّ بالعمل في الموقع - ... تتسرَّب الواحد تلو الآخر دون أن نتمكن من البدء في الأنشطة المقرَّرة ومن بينها ما كان يتوقف نجاحها بالدرجة الأولى على البدء في الإجازة الصيفية (مثل محو الأمية) لتوفر وقت الفراغ لدى الشباب الذي سوف نقوم بتدريبه على التدريس.

وكان علينا أن نملأ الفراغ في الموقع؛ كي نحتفظ بدرجة حماس أبنائه، فطلبنا من القيادات المحلية – خاصة في المجلس القروي والمجلس المحلي المنتخب ومركز الشباب– المشاركة في وضع الدراسات الخاصة بالمشروعات الثقافية وغيرها وتحديد الإمكانات الذاتية لمساهمتهم في تنفيذها دون أن نشعرهم بأن هناك معوقات في التمويل أو الإدارة.

وأفادنا ذلك فائدة مزدوجة؛ فقد نجح في امتصـاص قلـق أبناء الموقع، كما وضع القيادات المحلية في موقع المسئولية وأعطاهم دور الشريك الكامل في تنفيذ خطـط المشـروع؛ وبذلك تخلوا عن موقفهم السـلبي المتواكـل الـذي يعتمـد على أن الأمم المتحدة ستغرق قراهم بالخيرات، وكل دورهم هو استلام هذه الخيرات وتوزيعها.

وهكذا انهمكت هذه القيادات في إعداد أوراق منفصـلة عـن المشروعات المختلفة: أماكن إنشـائها – تكاليفهـا الإجماليـة – جدواها الاقتصادية – حجم مساهمة المحليات في تنفيذها إدارتها – تسويق منتجاتها.. حتى أصبح لدينا تصوُّرات أكثر وضـوحا لمشروعات ثقافية ذات طابع تدريبي وإنتاجي مثل: مشاكل الكليم والتريكو والخياطة – ورشة النجارة – أفران الخزف.. إلخ.

ومن مكاسب ذلك الاتجاه: أن التفكير في تسـويق تلـك المنتجات جعل القيادات المحلية تشرع في إعداد مبنى بمدخل القرية العاصمة (برج النور) لهذا الغرض، وكـان المجلـس القروي قد بدأ في بنائه لغرض آخـر، وتقـرَّر أن يسـتخدَم كمعرض دائم لمنتجات المشروع؛ حيـث يتوسـط موقعـه مجموعة قرى المجلس القروي، ويقـع فـي قلـب شـبكة مواصلاته.

ومن مكاسبه أيضا اقتناع القيادات المحلية بتحمل جانـب من تكاليف بعض المشروعات مثل قاعة السـينما ومبـاني مركز التدريب والإنتاج، وكذلك تبنيهم لمشـروعات محـو الأمية والمسرح والدعاية لهما، وتكليف مجموعة من شـباب القرية بإجراء تدريباتها في إحدى حجرات المجلس القروي.

ومن ذلك أيضا أن الحاجة إلى وجود هياكل ديمقراطيـة لإدارة المشروعات فجرت ضرورة بعث الحياة في جمعيات تنمية المجتمع التي يخيم عليهـا العنكبـوت منـذ سـنوات. وقد فرض هذا الاتجاه نفسه على مختلف القواعـد الشـعبية والقيادات المحلية وبدأت الترتيبات لعقد الجمعيات العموميـة لهذه الجمعيات لإعادة تشكيل مجالس إدارتها.

وفي غضون ذلك كانت الفرق المسرحية قد تقدَّمت شوطًا بعيدا، وطلب المخرج تحديد موعد لعرض المسرحية؛ حيث كانت تجربته قد نضجت وطابـت للقِطَـاف، كمـا انتهـت الدراسات الخاصة بفصول محو الأمية وترتيبـات افتتاحهـا وأوشك تأليف كتاب الدارس على الانتهاء، وتمَّ وضع الهيكل التنظيمي لبرنامج محو الأمية وغيره من المشروعات.

وجاء شهر سبتمبر ولم ينفذ شيء... وبدأ صبر الأهـالي ينفد، وتحوَّلت تساؤلاتهم إلى شكوك ثُم إلى سخرية مقنعة، ثُم إلى انصراف وتجاهل في بعض الأحيان.

وضعت أمام قيادة المشروع بالقـاهرة تسـاؤلاتي حـول إمكان الاستمرار من عدمه، ولم أخرج بإجابة شافية حتى قيل إن من الأفضل أن أنتظر الاتفاق مع رئيس الجهاز على تنفيذ جميع المشروعات التنموية في مختلف المجالات في وقـت واحد (وقد يكون ذلك في أوَّل العـام الجديـد)، فاعترضـت بأن ذلك كفيل بهدم كل ما بقي لنا بالموقع، فـإن المشـروع الثقافي هو الوحيد الذي بدأ تنفيذه هناك، وهو الوحيد القـادر على تمهيد الأرض لبدء تنفيذ باقي المشروعات، مما يجعـل له وضعا استثنائيا، وطالبت بمواجهة رئيس الجهاز لتحديـد موعد التنفيذ، حتى ولو تمَّ اعتماد ميزانية مؤقتـة للمشـروع الثقافي لثلاثة أشهر (حتى آخر ديسمبر).

أخيرا تمت مقابلة مع رئيس الجهاز ووافق على الاقتراح واعتمد ميزانية متواضعة، وتمَّ تحديد موعد لتقديم العـرض المسرحي في شهر أكتوبر.

إلا أن الإدارة المالية تباطأت في صرف الشيك الخـاص بالإنفاق على ذلك العرض، حتى مرَّ الموعد المحدَّد لـه دون التمكن من إقامته... وكنا في موقف شديد الحرج، إلى حـد أننا -بما فينا المخرج- خجلنا من السفر إلى القريـة؛ حتـى لا نواجه أعضاء الفرقة والأهالي، وتصوَّرنا أنهم اسـتنتجوا ما حدث، خاصة وأن الموعد كان يوافق إجازة عيد الفطـر، ولن يكون أمامهم غير التأجيل والانتظار لفرصة أخرى.

***

الصامت يتحدَّى

(٦)

سافرنا إلى قرية برج النور بعد إجازة العيد.

وجدنا في انتظارنا مفاجأة...

لقد أقامت فرقة الفلاحين العرض المسرحي في موعده...

وعلمنا أن الفرقة قد أرسلت مندوبا للسؤال عنا في مقـر الجهاز بالقاهرة فتصدَّى له موظف الأمن عند الباب، ولم ير في هيئته الريفية ما يقنعه بأنه ممثل وطالبه بإثبات شخصيته فآثر السلامة وعاد أدراجه يائسا إلى القرية...

وهكذا صمموا على إقامة الحفل.

تبنى رئيس المجلس المحلي المنتخب هذه القضية، وقـاد حملة لجمع التبرُّعات لإعداد المطالب الضـرورية.. ودون إشراف مخرج، أو تصميم ديكور، أو أجهزة إضاءة وإذاعـة جيدة... فقط بإمكاناتهم البدائية، ومشاركتهم العفويـة أعـدُّوا مسرحا ساذجا في الخلاء بكنبات منادرهم وجهزوه بديكورات من (دككهم وطباليهم)، واستعانوا أيضا بـبعض حيوانـاتهم الأليفة على المسرح... وكانت ليلة لا تُنسى في "برج النور"؛ ليلة سهر واستمتع فيها جميع أبناء القرية تقريبا رجالاً ونساء

وأطفالاً، وظلوا يحكون عنها ويتنـدَرون بنوادرهـا أيامـا طويلة... ولم ينس رئيس الفرقة – الفلاح الأمـي الفصـيح (الشيخ عبد النبي) أن يلقي كلمة قبل بدء الحفل أمام الأهالي حيا فيها مخرج المسرحية الغائب ورجال المشروع متمنيـا أن يكونوا بخير، وأن يأتوا يوما ليروا ثمرة جهدهم.

***

ربما كانت هذه (الليلة – التحدي) هـي لحظـة المـيلاد الحقيقية للوحدة التي تمت بين فرقتي الفلاحين والمتعلمـين، وأسفرت عن انتخاب مجلس إدارة راح يطالـب السـلطات الرسميـة بالاعتراف به ككيان مستقل.

عندئذ فقط، استطعت أن أفهم السبب الحقيقي لما كنا نراه ونسمعه عن تضحيات أسطورية للفلاحين من أجل أن يعلموا أبناءهم في الجامعات والمعاهد، ولو حرمـوا أنفسـهم مـن القديد، وهم ربما يعرفون مقـدَمـا أن أولئـك الأبنـاء لـن يساعدوهم بشهاداتهم العالية بعد تخرجهم وإنما بالكاد سيكفون أنفسهم... أو تضحياتهم من أجل إقامة مدرسة أو جـامع أو مركز للشباب أو جمعية تعاونية على نفقتهم الخاصة دون أن تساهم الدولة معهم بشيء... المسألة إذن أنهم يلتفون حـول

معنى ويصممون على تحقيقه وهم يعضون عليه بـالنواجز، ولا يضنون عليه حتى باللقمة أو حفنة الأرز، وهـم الـذين يعيشون على خط الجوع، وحيث يعـدُّ ذو الخمسـة أفدنـة من الأغنياء، والأهم أنهم ينجحون في الضغط علـى (ذوي الخمسة أفدنة فما فوق) للتبرُّع، وعلى رجال الإدارة والحكم المحلي لفرض رسوم على بعض المحاصيل لتوفير التمويـل اللازم في أسرع وقت (!) .. هكذا بلا قيادة مدبرة أو لجنـة مركزية أو قرارات فورية.. والغريب أنهم يصبحون فجـأة في سباق مع الزمن لكي ينجزوا مهمتهم حتى لا تسبقهم إليها مثلاً قرية مجاورة... هم أنفسهم الذين يظلون السنين الطوال ساكتين مستسلمين لا يمارسـون فعـلاً جماعيـا واحـدا... إنها ميكانيكية من نوع غريب، نوع من التحدي المعنـوي... أو فلنقل الحضاري لقوَة ما.. يولد إرادة ويفجر فعلاً...

لكن السؤال هو: متى تأتي لحظة التحدي تلك؟

أفتكون هي لحظة المواجهة لقوَة خارجية طارئة تحـاول أن تلغي وجودهم مثلما رأينـا المصـريين عبـر التـاريخ في مواجهاتهم البطولية للقوى الأجنبية الطامعة؟

أفتكون هي لحظة المواجهـة لحضـارة غازيـة تسـعى لابتلاعهم فيبادرون هم... باستيعابها وابتلاعهـا وهضـمها مثلما فعلوا مع كل الحضارات الغازية؟

أم قد تكون لحظة التحدي حتى لقرية مجـاورة تحـاول الاعتداء عليهم أو التفوُّق مثلما رأينا وسمعنا عن صـراعات طاحنة ومنافسات منهكة بين القرى؟

إذن... هل كان مجرد تخلي (الأمم المتحدة) كمـا كـانوا يتصوَّرون... عن إقامة حفلهم المسـرحي – مثلمـا تخلـت من قبل عن تنفيذ وعودها بمشروعات التنمية – هي لحظـة التحدي التي فجرت إرادتهم الفعالة... فكان عليهم أن يثبتـوا لها (وللعالم) أنهم موجودون؟ ربما.. لكن المؤكد هـو تلـك الحقيقة البسيطة التي أدركتهـا عندئـذ: أن بنـاء المدرسـة أو الجامع أو النادي أو حتى إقامة الحفل المسرحي.

هو الوجود الرمزي المجسد لذات الجماعة في مواجهـة لحظة إنكار الذات أو الاستعلاء عليها.

***

(٧)

مضى شهر أكتوبر ١٩٧٨ وكرّرنا مطالبتنا بتنفيذ قـرار رئيس الجهاز بشأن الميزانية المؤقتة حتى آخـر ديسـمبر، ولم يشترَ شيء من مستلزمات المسرح ومحو الأمية.. كـل ما نجحنا في الحصول عليه هـو الشـيك المعتمـد للحفـل المسرحي الذي أُقِيم...

وحفظًا لماء وجوهنا وفي محاولة لاستعادة الثقة المفقـودة من جانب الأهالي قرَرنا أن نعيد تقديم العـرض المسـرحي لفرقة برج النور إمام أهالي قرية بقطارس يوم ٩ نـوفمبر، في إطار أكثر تأثيرا وجاذبية، فاستعان المخرج عباس أحمد بشاعر وملحن من القاهرة لوضع أغاني وألحـان تصـاحب العرض، واستعان بالفنان محمود الهندي ليقوم بتنفيذ رؤيـة تشكيلية للمسرحيتين المعدّتين حتى أصبحت كـل عناصـر العرض نسيجا عضويا متماسكًا.

ودعونا رئيس الجهاز وكل المسئولين لحضـوره، كمـا طلبنا نقل جهاز التصوير التليفزيـوني (الفيـديو) الخـاص بالجهاز لتصوير العرض؛ ليظل وثيقة يمكن الرجوع إليهـا مستقبلاً.. فلم يحضر أحد أو شيء من كل ذلك.

وفي موعد تحرُّك السيارة من مقر الجهاز حضر بعض موظفي إدارة الإعلام؛ إذ نما إلى علمهم أن رئيس الجهاز سوف يحضر، غير أنهم ما إن تأكدوا في آخر لحظة من عدم حضوره واطمأنوا إلى أن السيارة اتخذت طريقها إلى خارج القاهرة بعد أن أثبتوا تواجدهم في "المهمة الرسمية" حتى تسللوا منها واحدا تلو الآخر... عائدين إلى بيوتهم... إلا أن الدفء الذي أشاعه الفريق المسرحي في قلوب مئات المتفرجين والذي طغى على برودة تلك الليلة وأمطارها في الخلاء الممتد، والسعادة التي شملت أبناء القريتين، كانا إغراء كافيا لأعضاء المشروع الذين حضروا الحفل.

***

وأحرزنا تقدُّما آخر عندما نجحنا في اختراق الحواجز البيروقراطية – أو تحايلنا عليها – بتجهيز ثلاث مجموعات من الكتب المتنوعة تمَ اختيارها بعناية من مطبوعات الهيئة العامة للكتاب لتكون نواة لثلاث مكتبات عامة لمراكز الشباب في ثلاث من قرى الموقع، واستفدنا في تحقيق ذلك من عاملين: الأول هو استعداد رئيس الجهاز للموافقة كتابيا على بعض المطالب الجزئية للمشروع، والثاني هو استجابة رئيس

هيئة الكتاب للمبادرة الشخصية التي طلبت منه فيها السماح بأية كمية من الكتب بتخفيض خمسين في المائة ودون اشتراط تحصيل الثمن مقدّما... وهكذا حصلنا على الكتب الجديدة دون المرور على الإداريين، وأُرسِلت إلى قرى الموقع؛ فكانت جرعة مهدئة ومنشطة، وأعادت بعض الأمل إلى النفوس في أن الخير قادم... وإن طال الزمن...

ونجحنا في التقدم خطوة أخرى – أو هكذا خُيل إلينا عندما استجابت إدارة الجهاز لاستغاثتنا بطلب اتخاذ الإجراءات لتنفيذ التسجيلات الدرامية والفوتوغرافية الخاصة بمحو الأمية – (وذلك بعد مقابلة عاصفة بين رئيس وحدة التنمية الريفية – الدكتور عبد الباسط عبد المعطي – وبين المدير العام الإداري بالجهاز حول معوقات المشروع) إذ إنهم اقترحوا علينا عقب مفاوضات طويلة مضنية، الإعلان بالصحف عن مناقصة للمشروع، وعندما نفذنا الاقتراح وجاءت بعض العروض وطلبنا تشكيل لجنة للبت فيها وجهوا إلينا انتقادا لقيامنا بالإعلان في الصحف تكلف ما يكاد يساوي تكاليف تنفيذ المشروع ذاته...

وقِس على ذلك ما لا يحصى من معوقات واستفزازات تجعل من استمرار العمل شيئًا مستحيلاً، حتى السيارة التي تنقل الفريق من القاهرة إلى قرى الموقع لم نكن نجدها في معظم الأحيان، أما التنقل بين القرى نفسها، والتي تصل المسافة بين أحداها والأخرى خمسة كيلو مترات فقد كان علينا أن نسيرها على الأقدام – في الوقت الذي كانت توجد فيه ثلاث سيارات بلا عمل تقريبا بمركز تنظيم الأسرة بمدينة المنصورة المجاورة للموقع...

لم يكن الأمر يحتاج إلى دليل بعد ذلك كي يقتنع حتى حسنو الظن من فريق البحث بأن إدارة الجهاز تتعمد تعطيل المشروع تمهيدا للنكوص عنه، ومع ذلك فإنها كانت تحرص على ألا تنقطع (شعرة معاوية) في هذا الوقت، من ذلك أنها وافقت أخيرا على اقتراح فريق البحث بتعيين مدير تنفيذي في الموقع (٤)، وأعطته الصلاحية – شفويا – لاختيار العناصر التي تساعده إداريا وفنيا، كما وافقت بعد ضغوط على طبع كتاب محو الأمية الذي انتهى إعداده بمطبعة الجهاز.

ولعل الدافع وراء هذه المهادنة العارضة من جانب إدارة الجهاز هو أن جهة التمويل بالأمم المتحـدة – التـي سـبق أن وافقت على فلسفة المشروع وإطاره النظـري وخطط ـه أرسلت تستحث الجهاز علـى موافاتهـا بتطـوُرات العمـل بالمشروع حتى ترسل إليه الأموال اللازمة.

ورغم أن المدير التنفيذي الجديد صـدِم فـي أوَل يـوم لاستلامه العمل برفض إدارة الجهاز إطلاعه على ميزانيـة المشروع حتى يمكنه العمل على أساسها، وإنه اكتشف عـدم جديتها في تشكيل هيكل إداري مستقل يعاونه في مهمته فقـد وجدنا أنفسنا – نحن أعضاء الفريق الثقافي – مدفوعين، بقوَة تيار أهالي الموقع وبقوَة خوفنا أيضا من انقطاع هذا التيـار، للاستمرار في التجربة.

***

(٨)

كان انتهاء طبع كتاب المدرس – الذي يتضـمن المـنهج والدليل للمدرس في فصول محو الأمية – بمطبعـة الجهـاز ثُم البدء في طبع كتاب الدارس بعد جهود مضـنية لإقنـاع الإداريين والمسئولين بالمطبعة، وبعد شهور مـن الـتملص والتذرُّع بعدم وجود الورق، أو بعدم اجتماع لجنة المشتريات لشرائه.. كان ذلك الإنجاز قد جدَّد لدينا الأمل فـي إمكانيـة الاستمرار.

بدأنا نُعِدُّ للدورة التدريبية للمدرسين في فبراير ١٩٧٩.

وضعنا خطة تثقيفية متنوعة بـين موضـوعات تثقيفيـة وتنموية وثقافية، واختير ليحاضر فيها مجموعة من أسـاتذة الجامعات والمتخصصين، وتمـت دعـوة الـراغبين فـي الاشتراك في الدورة من أبنـاء الموقـع وجهـزت إحـدى المدارس بالقرية لتكون مقرا تنعقد فيه.

وفي ٢٤ فبراير أُفتُتِحت الدورة افتتاحا مثيرا؛ حيث بلغ عدد الشباب المتطوع أكثر من خمسين بينهم نسبة مرتفعة من الآنسات، في جو مشتعل بالحماس وجميع مسام النفوس متفتحة للامتصاص، والمناقشات تتراوح بين الهدوء والسخونة، وبمرور الوقت أصبحت المجموعة كجسد كامل له دورته الدموية الخاصة التي تنقي نفسها بنفسها أولاً بأول من أية شوائب ضارَّة.

واستمرَّت الدورة التدريبية أسبوعين تكشفت خلالهما أشياء رائعة، وفي النهاية وجدنا أن المدَّة لم تكن كافية، وأن من الضروري مدّها فترة أخرى يتمُّ فيها التركيز على مفهوم "المشاركة الشعبية" كأساس في عملية التنمية، وعلى دور القيادات غير الرسمية في التوعية وفي تعبئة الجمهور بالموقع فيما يتصل بالمشروع ككل وليس فيما يتعلق بمحو الأمية فقط كجزءٍ من النشاط الثقافي، انطلاقًا من ضرورة التكامل بين النشاطات المختلفة بمشروع التنمية الشاملة. كما راعينا من مد فترة الدورة أن تتاح الفرصة لتدريب المدرسين على استخدام كتاب الدارس الذي طُبِع منه ٢٠٠٠ نسخة واختير له عنوان "اقرأ – اعرف – اتعلم".

وهو في الحقيقة لم يكن مجرد كتاب في محو الأمية بل كان رؤية جديدة في هذا الميدان... تستهدف أساسا الارتقاء بالوعي الطبقي للأميين ككادحين ومنتجين ومستقلين لا كمجرّد أميين أو جهلة، وتقوم على منهج التعليم الهجائي الذي يرتبط فيه اكتشاف الحرف الجديد باكتشاف القيمة الجديدة، ويرتبط فيه امتلاك اللغة بامتلاك الوعي، وتتمُّ تربية (اللغة – الوعي) معا من خلال تربية القدرة على الجدل والقدرة على مواجهة المواقف الصراعية في واقع الحياة اليومية.

ولتقريب الصورة أكثر سأكتفي بعرض درس واحد من دروس الكتاب كنموذج للأسلوب الذي أُتبع في بقية الدروس وهو بعنوان: كشف الحساب.

توفيق يذهب للجمعية الزراعية.
ويعود دون أن يفهم أيَ شيء.
كل مرَّة تقل كمية التقاوي.
كل مرَّة تزيد كمية الديون.
وتوفيق لا يفهم السبب.

يذهب إلى مـرزوق أفنـدي كاتـب الجمعيـة.
ويسـ ـ ـ ـ ـأله عـ ـ ـ ـ ـ ـن السـ ـ ـ ـ ـ ـبب.
كـ ـل مـ ـرَّة تقـ ـل كمـ ـيـ ـ ـة التقـ ـاوي.
وتزيـ ـ ـ ـ ـد كمـ ـيـ ـ ـ ـ ـ ـة الـ ـ ـ ـ ـديون؟.
مرزوق أفنـدي يقـدم لـه كشـف الحسـاب.
لكن توفيـق لا يعـرف القـراءة ولا الكتابـة.
توفيـ ـق يأخـ ـذ كشـ ـف الحسـ ـاب.
وينصـ ـرف دون أن يفهـ ـم أي شـ ـيء.
توفيـ ـ ـق يفكـ ـ ـ ـر فـ ـ ـي قلـ ـ ـق.
إلـ ـى متـ ـى يسـ ـتمرُّ الأمـ ـر هكـ ـذا؟
قرَّر توفيق أن يذهب إلى فصول محو الأميـة.
توفيـق يـتعلم القـراءة والكتابـة كـل يـوم.
توفيـق يعـرف شـيئًا جديـدا كـل يـوم.
لكـ ـن السـ ـؤال المهـ ـم بـ ـلا جـ ـواب.
لمـ ـاذا تقـ ـل كمـ ـيـ ـ ـة التقـ ـاوي.
وتزيـ ـ ـ ـ ـد كمـ ـيـ ـ ـ ـ ـ ـة الـ ـ ـ ـ ـديون؟
توفيـ ـق ذهـ ـب إلـ ـى مـ ـرزوق أفنـ ـدي.
وأخـ ـ ـ ـ ـذ كشـ ـ ـ ـ ـف الحسـ ـ ـ ـ ـاب.

توفيـق قـرأ للمـرَة الأولـى فـي حياتـه.
كشـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـف الحسـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـاب.
توفيـ ـق التفـ ـت إلـ ـى مـ ـرزوق أفنـ ـدي.
وقال له في ثقة:
الحساب غلط![5]

ولا يكتمل كتاب الدارس خلال عملية التعليم إلا بارتباطه بكتاب المدرس الذي تضمن المنهج والدليل لهـذه العمليـة، وقد يكون مفيدا أن أنقل هنا أحد دروس هذا الكتاب كنموذج للخط الذي التزمه وهو الدرس العاشر ويقـوم علـى ثلاثـة كلمات رئيسية: ناس – نار – نور.

... الأهداف التعليمية: "حرف النون" .

دليل المناقشة:

١- هل الناس شكل واحد وجنس واحد؟

٢- إلام ينقسم الناس؟

- تقسيم عنصري: أبيض أسود؟
- تقسيم ديني: مسلم، مسيحي، يهودي.
- تقسيم إقليمي: صعيدي- بحيري؟
- تقسيم اجتماعي: مستَغِل – مستَغَل؟

- تقسيم اجتماعي: مستغل مستغل؟ (بفتح الغين في الأولى وكسرها في الثانية).

غني – فقير – ظالم – مظلوم؟

٣- ما الذي يحدد تفضيل شخص على آخر أو جمع من الناس على جمع آخر؟ هل هو المركز أو الجاه أم الأصل أم الشكل أم اللون أم العمل الذي يخدم الذات أم العمل الذي يخدم المجموع؟

٤- كيف يحصل الناس على حقوقهم؟ هل بالتعاون والترابط وإنكار الذات؟ أم بالأنانية والتباعد وحب الذات على حساب الغير؟

٥- هل كل الناس مصالحهم متفقة أم أن هناك مصالح متعارضة ولِم؟

٦- هل زيادة الناس هي التي تسبب ارتفاع الأسعار والأزمات أم أن هناك أسبابا أخرى؟ وما هي؟

٧- متى عرف الإنسان النار؟ وما الدور الذي لعبته في تطوُّره ومتى عرف المعادن؟

٨- ما دور النار في خلق الآلة البخارية وفي تطوير البشرية؟

٩- النار كضوء، وحرارة.

١٠- كيف يمكن الحصول على الطاقة؟ وما هي أشـكال الطاقة وهل يمكن تحويل أحد أشكالها لشكل آخر؟

ملاحظات:

١- تُعرض عدَة مصور بالفانوس السـحري توضـح عددا من الأشخاص من فئات اجتماعيـة مختلفـة يمارسون عملهم اليومي أو حياتهم بشكل طبيعي.

٢- تُسمع من المسجل قصة قصيرة أو قصيدة.

٣- تبدأ المناقشة بعد ذلك على أساس الدليل السابق.

٤- يمكن أن تتمَ مناقشة قصيدة قبل سماح المسـجل لمعرفة حدود الدارس الفكريـ ـة والثقافيـة، ثُـم تستأنف بعد سماع المسجل لإدراك المـدى الـذي وصلت إليه أفكارهم، ومدى استفادتهم من ذلك.

٥- تُعرض صورة الحرف منفصلة على السبورة ثُـم تُعـ ـرض ضـ ـمن كلمـ ـة نـ ـاس، وتُكتَـ ـب على السبورة.

٦- تبدأ القراءة من كتاب الدارس الذي يبقى مغلقًا طوال الفترة السابقة ويتولى المدرس كتابة بعض الجمل على السبورة ويستدعي بعض الدارسين لكتابتها... وهكذا...) [٦].

وإذا كان هذا المنهج (في كتاب المدرس) لم يصدر من فراغ، ولا يمثل اكتشافًا؛ إذ استمدَّ أساسا من فلسفة مشروع التنمية الشاملة، ومن تجارب بعض الشعوب بل حتى من بعض التجارب المصرية بعد أن دُرِست وقُيِمت جيدا... فإن الإضافة الحقيقية والجِدَّة تتمثلان في كتاب الدارس، ولعل ما أعطاه حيويته وطزاجته... أن الذين اشتركوا في تأليفه ليس بينهم متخصص واحد في هذا المجال؛ فهم مجموعة تتكوَّن من كاتب قصة، ومهندس زراعي، وفنان تشكيلي[٧]... فضلا عن أنهم جميعا من الشباب الذين تمتدُّ أصولهم إلى واقع الريف المصري ولهم تجارب ثقافية وتطوعية مختلفة في مواقع متعددة بالريف.

***

(٩)

كانت أصول الكتاب قد نُوقِشت ورجعت أكثر من مرَة قبل إقرارها من فريق البحث الرئيسي ثُم من رئيس الجهاز نفسه قبل إعطاء الأمر بطبعه.

لكن يبدو أن للكلمة المطبوعة وقعا مثيرا ومخيفًـا، فمـا إن خرج الكتاب من المطبعة مكتملاً ومجلـدا حتـى بـدأت تتصاعد سحب الدخان بين أروقة الجهاز. ومـرَ يومـان.. ودون مناقشة مع أعضاء فريق البحث أو الفريـق الثقـافي أو حتى توجيه كلمة واحدة صدر الأمر بوقف إرسال النسـخ المطبوعة إلى الموقع لاسـتكمال الـدورة التدريبيـة، وراح بعض المسئولين في الجهاز يهرولون بين حجراته وممرَاتـه وموظفيه يجمعون كل نسخة شاردة من الكتـاب ويحصـون عدد النسخ الموجودة إحصاء دقيقًا، بل ويسجلون أسماء كـل من حصل على نسخة من قبل عن طريق المطبعة... واتخذ الأمر الشكل التقليدي لمصـادرة الكتـب الخارجـة علـى القانون... وتمَ التحفظ على كل الكمية المطبوعة حيث اختفت بعد ذلك في مكان مجهول وإلى الأبد...

وبينما كان ذلك يحدث في أروقة مبنى الجهاز بالقـاهرة كان شيء أكثر غرابة يحدث فـي فـرع الجهـاز بمدينـة المنصورة.. على بعد عشـرين كيلـو متـرا مـن موقـع المشروع.. لقد دخل بعض رجال مباحث أمن الدولة المقـرَ وسألوا عن حسن شعبان (المشرف على برنامج محو الأمية) وعباس أحمد (المخرج المسرحي بالمشروع) وكانا قد وصلا في صباح ذلك اليوم ٨ مـارس ١٩٧٩ إلـى هنـاك بنـاء على موعد سابق لاستيفاء بعض الشئون الخاصـة بالعمـل، وكان ذلك يحدث في أحيان نادرة حيـث لـم تكـن لفـرع المنصورة صلة مباشرة بالمشروع، مما يؤكد أن المباحـث كانت تتابع تحرُكاتنا من مصـادر فـي داخـل الجهـاز.. وما إن التقى رجال المباحث بعضوي الفريق الثقافي حتـى أخبروهما بأنهم يحملون أمرا بالقبض عليهما، ودون إبداء أية أسباب اقتادوهما إلى مبنى مباحث أمن الدولة بالمنصـورة، ومنه تمَ ترحيلهما إلى سجن القلعة بالقاهرة، وهناك أمضـيا عدة شهور حتى أُفرج عنهما – بأمر المحكمة– بلا ضـمان ودون أن يعرفا تهمتهما الحقيقية...

وخيمت سحب النهاية... والأيام والأسابيع تمرُّ بلا عمـل والعيون ملئ بأسئلة خرساء، وفي اجتماع أخير فـي أوائـل شهر إبريل ١٩٧٩ بين رئيس وحدة التنمية الريفية المشـرفة على المشروع وبين رئيس جهاز تنظيم الأسرة والسكان أبدى الأخير مخاوفه من عدم وصول التمويل الـلازم للمشـروع من نيويورك، لكنه ودون أية إشارة إلى مـا حـدث أو أيـة تحفظات على المشروع أبدى استعداده لاستمراره تحت اسم آخر يحدَّد فيما بعد، وأن يقوم الجهاز مباشـرة بتمويلـه؛ أي على نفقة الحكومة المصريـة، وأرجأ الدخول في التفاصيل إلى حين عودته من زيارة عاجلة إلى واشنطن...

وفي اليوم التالي لسفره وصل إلى كل عضو من أعضاء فريق البحث ومن العاملين بالمشروع وأوَّلهم رئـيس وحـدة التنمية الريفية خطاب موقع من رئيس الجهاز يحمل تاريخًـا سابقًا على يوم مقابلته المذكور، يبدي فيه أسـفه للاسـتغناء عن خدماته؛ وذلك لإنهاء مشروع التنمية الريفيـة الشـاملة بـ "برج نور الحمص" ويشكره على تعاونه مع الجهاز!

***

(١٠)

الآن وبعد مضي وقت طويل على أجهاض تجربة "برج النور" قبل أن تكتمل، أجد أنها قد تستحق أن تُقلب صفحاتها بنظرة هادئة؛ لنحاول أن نرصد أهم النتائج والآثار، ونستخلص ما هو جدير بأن يبقى منها من إيجابيات قد تعطي الأمل لأي قافلة من الباحثين المخلصين في الارتقاء بمساحات الصامتين العريضة المسماة بالريف المصري، وكي لا تضيع أصواتهم في الصمت بعد أن عرفوا كيف ينطقون وكيف لا تخور إرادتهم وتخونهم الثقة في أنفسهم بعد أن عرفوا كيف يصممون ويواجهون... وكي لا تعجز أقدامهم عن الحركة بعدما عرفوا كيف يتحرَّكون.

***

إن فترة الممارسة الفعلية لهذه التجربة لا تكاد تكمل العام، فإن أوَّل زيارة قام بها أعضاء الفريق الثقافي للموقع كانـت في ١٣ مارس ١٩٧٨، وكان آخر يوم لوجودهم هناك هو ٨ مـارس ١٩٧٩. ومـا أتـيح للفريـق البـدء فـي تنفيـذه من الخطة التي وضعها لا يزيد على ثلاث فقـرات مبتـورة من بعض عناصر المحاور الخمسة، والتـي يتضـمن كـل محور منها عددا من العناصر، ويتضمن كل عنصر عـددا من الفقرات تصل في مجموعها إلـى ثلاثـين فقـرة كـان من المفروض أن يتمَ إنجازها في عامين وعلى ذلك فإن نسبة ما أتيح لنا البدء فيه هي ١٠٪ فقط من مجمل الخطة ممثلـة في مشروعات المسرح ومحو الأمية والمكتبات.

ومع ذلك فإن هذه العشرة في المائة كان لها مردود هائل بالنسبة لنا أعضاء الفريق الثقافي وبالنسبة لأبنـاء المنطقـة ونتج عنها عدد من المتغيرات الهامة، بعضها فـي أذهاننـا كمثقفين، تتعلق ببعض التصـوُرات الثابتـة عـن الفـلاح المصري وعن أساليب العمل بالريف، وبعضها الآخر فـي أذهان وقيم وسلوك الأهالي من الفلاحين والمتعلمين.

- بالنسبة لنا – نحن المثقفين – فقد اكتشفنا مـن خـلال موقف فرقة الفلاحين عندما أقاموا حفلهم المسـرحي معتمدين على أنفسهم كرد على تخلينا عنهم ومن خلال موقف الفلاحين بعد صلاة الجمعة يوم رفضوا بقسوة كرد على خداع رجال المشروع لهـم ومـن خـلال مواقف أخرى مشابهة.. اكتشفنا أن شخصية الفـلاح المصري ليست شخصية ساكنة أو متواكلة أو مسلوبة الإرادة كما تعوَّدنا أن نسمع ونقرأ، بل هي في أعماقها شخصية دينامية وقادرة على المبادرة والفعل والتحدي إلى الحد الذي نراها فيه تقفز بموقفها الصراعي طفرة بعيدة، وربما كان مفتاح هذه الإيجابية هـو الشـعور الجمعي بمواجهة تحد كبير ينكر ذاتهـا الجماعيـة أو يتفوَّق أو يستعلى عليها؛ وهو ما يفسر أيضا المنافسـة الشديدة بين القرى في بناء المساجد والمدارس، أو في تعليم أبنائها بالجامعات رغم عظم التضحيات، وربمـا كان صحيحا أن الشخصية الريفية تظهر أمام الغريب غير ما تبطن وتلجأ إلى الالتفاف، لكن ذلـك مجـرد تحوُّط وحذر أملته عليهـا عوامـل القهـر وألـوان الاستغلال على مدى القرون، وما إن تأنس وتطمـئن حتى يتدفق عطاؤها وإيجابيتها.

- ولقد اكتشفنا بفضل هذه المواقف أيضا خطأ الفكرة شبه الثابتة لدى كثير من المثقفين بأن تجاوز الفلاح المصري لسلبيته واتخاذه موقفًا ثوريا يوما ما، مـا هو إلا ردَ فعلٍ عاطفي عضوي مؤقت وسرعان ما يعود إلى سلبيته وسكونه دون اسـتيعاب للخبـرة المتراكمة... لكن الواقع أن حياة هؤلاء المـواطنين بعد تلك المواقف المذكورة قد تغيرت بشكل دفعهم إلى مواقف جديدة أكثر تطـوُرا.. مثـل انضـمام أعضاء فرقة الفلاحين إلى فرقـة المتعلمـين بعـد أن ظلوا طويلاً يؤثرون العزلة، ثُم تشكيلهم جمعية عمومية انتخبت مجلس إدارة، وسعيهم لإشـهارها رسميا كجمعية مسرحية. لقد كانت هذه البداية هي مواجهة التحدي الذي فُرِض علـيهم فـي لحظـة مصيرية، وهذه المواجهة هي مـدخل للثقـة فـي أنفسهم وقدراتهم، وتلك الثقة هي أوَل الطريق للفعل والمبادرة والانطلاق متجاوزين كل الحواجز، وهي أوَل الطريــق لاكتســاب الــروح الجماعيــة والديمقراطية، والصحيح أن طبقات السلبية الحقيقية

تتكوَن لديهم حين يفقدون الثقة في أنفسـهم أو فـي الأجهزة التي تتعامل معهم بعد أن تخدعهم وتكذب عليهم؛ ومن ثَم فإن هذه السلبية هي سلبيـة تلـك الأجهزة وليست سلبيـة الفلاحين، وحتى سـلبيتهم هنا ما هي إلا نوع من الدفاع عن النفس.

- ومما درج المثقفون على ترديده وغيرته التجربـة في أذهاننا أن شخصية الفلاح المصري ليس لـديها القدرة على تقبل الأفكار الجديدة بسهولة.. لقد قاوم المتعلمون في القرية طويلاً محـاولات المخـرج إقناعهم بالاعتماد التام على أنفسهم فـي التـأليف الجماعي والتمثيل غير النمطـي (علـى طريقـة الإذاعة والتليفزيون) وتجريب قدراتهم في الإخراج أيضا، وفضلوا البدء بمسرحيات جاهزة من القاهرة – أما فرقة الفلاحين فقد اسـتجابت فـورا لـدعوة المخرج وبدأت ممارستها بالفعل بعبقرية... لـيس ذلك فحسب... بل إن هـؤلاء الفلاحـين الأميـين سرعان ما استوعبوا الأساليب العصرية في الفـن المسرحي التي نقلها المخرج إلـيهم، مـن إدخـال عناصر الشعر والموسيقى والغناء الجماعي داخـل

العمل، ومن مؤثرات إضاءة وديكور. كما كانوا أسرع استجابة إلى تأليف اسكتشات مسرحية فكاهية عن بعض القيم السلبية في حياتهم؛ مما نبهناهم إليها مثل المعتقدات الخرافية وكثرة الإنجاب، وهو ما كان المخرج نفسه لا يتوقع حدوثه قبل ضعف هذا الوقت، وقد كتب في مذكراته عن التجربة (وهو الذي يمارس الإخراج المسرحي منذ أكثر من ١٥ عاما بمسارح الثقافة الجماهيرية) أنه تعلم على أيدي الفلاحين درسا غاليا، وأنه أضاف على رؤيته جديدا بالنسبة لقضية مسرح الفلاحين...

أما غير الفلاحين من أبناء الموقع فإن استجابتهم للأفكار الجديدة طيبة، وهذا ما لمسناه من الدارسين بالدورة التدريبية لمحو الأمية؛ ففي أقل من أسبوعين كانوا قد تبنوا أفكار المشروع التي كانت في البداية صدمة لهم، أما الفتيات المتعلمات فقد كانت استجابتهنَ للمشاركة الكاملة أروع سواء في مشروع محو الأمية أو بقية المشروعات الخدمية رغم ما في ذلك من مخاطر التعرُض للانتقاد الاجتماعي الذي تمليه التقاليد الريفية حتى لقد سجلن بأقلامهنَ آراءهنَ التي تفوق في الوعي أحيانًا ما كتبه الشبان.

فهل هناك استجابة للأفكار الجديدة أسرع من ذلك؟.

- ومن بين الأفكار شبه الثابتة لدى المثقفين والتي كشفت هذه التجربة نقصها أن التغير الثقافي هو انعكاس للتغير في البنية التحتية للمجتمع بجوانبها الاقتصادية والاجتماعية والسكانية.. وهي مقولة صحيحة نظريا لكنها ناقصة؛ لتجاهلها للقانون النوعي للعملية الثقافية وخصوصيتها في الواقع، وهي خصوصية تتصل بدينامية العقل والتكوين النفسي وبميكانيكية الفعل ورد الفعل وبما يسمى تجاوزا بالطبيعة الإنسانية التي تتشوَّف إلى الطموح وإلى التقليد وإلى الفن كاحتياج ضروري للإنسان حتى وهو يعيش في أسوأ الظروف.

فحين اضطررنا للبدء وحدنا بالعمل الثقافي في الموقع دون أن يواكبنا أي من مشروعات الخطة الاقتصادية السكانية التف حولنا أبناء الموقع بعد عدة زيارات أذابت عوامل الشك وأعادت الثقة المفقودة وتفجرت طاقاتهم للمشاركة والمبادرة وتفتحت مسامهم لاستقبال الجديد وصاروا مهيئين تمام التهيؤ لتبني كافة المشروعات التنموية

في كافة المجالات الاقتصادية والاجتماعية والصحية... إلخ، وهذا ما يجعلني أملك الثقة لكي أؤكد: أن العمل الثقافي مدخل ضروري يجب أن يسبق أية عملية تنموية... إنـه الكتيبـة الأمامية التي تمهد طريق القوافل.

- وقد استطعنا أن نستوعب عمليا على ضوء نجـاح تجربـة المسـرح بالقريـة وتأثيراتهـا المختلفـة أن الفنَ هو العنصر الأكثر أهمية في نجاح عمليـة التنمية الثقافيـة بالريف، أنـه القاسـم المشـترك الأعظم بين المثقـف والأمـي، بـين السـلفي والثوري، بين الفكر والسلوك، بين الواقع والحلم... وهو أيضا ميدان لممارسة الصـراع بـين كافـة التناقضات في القرية حيث يكـون مـن الصـعب ممارسة هذا الصراع في الواقع مباشرة؛ ومن هنـا يمكن أن يصبح الفن هو "الحضانة الأولى" لبـذور الأفكار الجديدة التي تكبر بداخله تدريجيا من خلال صراعها مع القديم قبـل أن تنـزل إلـى الواقـع وتخوض معركتها الحقيقية بداخله مباشرة.

وليس أدل على ذلك مما حدث من آثار في القرية عقب عرض الفرقة المسرحية للتمثيلية الفكاهية "حاميها حراميها" التي تنتقد مفهوم العدل المتلون لدى السلطة في القرية، وقيام الخفراء بسرقة الفلاحين بدلاً من حمايتهم، فقد ثار الخفراء الحقيقيون بعد عرض المسرحية وطالبوا العمدة بتوقيع العقوبة على أعضاء الفرقة ومنع عرض أية مسرحية إلا بعد "إطلاعهم" عليها.. لكن القرية كلها اجتاحها رأي عام بأن التمثيلية لم تعرض إلا ما يحدث فعلاً في الواقع، وقد كان إمساك التمثيلية بهذه الحقيقة يملأ الأهالي بنشوة الاكتشاف، وبالفرح لهذا الإعلان العريض عنها؛ مما جعلهم يتندَرون بمواقف التمثيلية في كل مكان، ويدافعون عن الفرقة المسرحية حتى نجحوا في الضغط على العمدة كي يعلن موافقته على المسرحية ويدافع عن الفرقة بل ويوبخ الخفراء...

- إن أمية المتعلمين قد تكون أخطر من أمية الأميين، وإن التوجه الثقافي بالقرية يجب أن يبدأ بالشـباب المتعلم قبل التوجه إلى القطاعات العريضة المختلفة ثقافيا.. هذا ما خرجنا به من خلال حوارنا المستمر مع عديد من متعلمي القرية مثل وكيـل المدرسـة الذي لا يعترض على ممارسـة زوجتـه للعـلاج بالسحر والشعوذة، ومثل أعضاء الدورة التدريبيـة لمحو الأمية من الطلبة والمـوظفين وغيـرهم... والتي كشفت في بادئ الأمر كثيرا من الجهل بواقع مجتمعهم وعدم القدرة على الربط بين محو الأميـة ومشاكلهم المزمنة وبين وعيهم بها وإمكانية تغييرها وذلك قبل أن يكتسبوا وعيا جديدا جعلهم يغيـرون أفكارهم.. إن هذا ما يجعلني أؤكد أن جزءا هامـا من التنمية الثقافيـة يتوقف علـى تربيـة كـوادر المثقفين الذين سيصبحون حملة الوعي في محيطهم الأسري والاجتماعي ولو تمَّ ذلك فسوف يكونـون بمثابة الشرايين التي تربط القلـب – وهـو قيـادة المشروع – بالجسم – وهـو القطاعـات الشـعبية

العريضة، وعكس ذلك ربما يحمل مخاطر وقـوف هذه الفئات المتعلمة (والتي تحتضن بـداخلها قـيم القرية المتخلفة) موقفًا مقاوما أو سلبيا من المشروع بما ينعكس بالضرورة على أهلهـم وذويهـم مـن الأميين البسطاء.

- إن العمل الثقافي بالقرية لن يتحقـق لـه النجـاح ما لم يقم على أساس صـلات شخصـية صـميمة بأبنائها ومعايشتهم والامتزاج بهم من خلال الإقامة فترات كافية في موقع العمل قبـل الـدخول فـي التنفيذ. وأذكر أننا لجأنا إلى خبير فـي الأبحـاث الميدانية ليصمم لنا اسـتمارة اسـتبيان لتطبيقهـا على أهالي الموقع لمعرفـة اتجاهـاتهم وأحـوالهم تمهيدا لتقسيمهم إلى مجموعات متجانسة عند إقامة الفصول الدراسية؛ فصمم لنا استمارة تتضـمن ٣٧ سؤالاً بعضها عن أشياء كانوا يعتبرونها من أخص خصوصياتهم، وكانت النتيجة أنهم راحوا يتهرَبون منا أو يعطوننا معلومات وعناوين خاطئة أَدت إلى ارتباكنا تماما – مما جعلنا نلقي بالاستمارة جانبـا

ونصمم بطاقة صغيرة جدا تضـمُ بضـعة أسـئلة أساسية واعتمدنا على المتعلمين من أبناء الموقـع الذين شاركوا في الدورة التدريبية في تطبيق هـذه البطاقة على الأميين، وكانت علاقاتنا قد توطـدت بهم استنادا على الثقة بين المتعلم وبين أهل قريته؛ مما يسهل حصوله عليها بشكل شخصي من أقاربه وجيرانه وأبناء حيه، وقد أثبت ذلك جدواه بدرجـه عالية، وكان ذلك أيضا درسا لنا في عدم الركـون إلى القوالب النمطية في التعامل مع واقـع خـاص متحرك، وكانت دلالته البسيطة هي أن البحث هـو – في نفس الوقت – الممارسة، ولا يمكن الفصـل بين الاثنين.

***

الصامت يتحرَّك

(١١)

وعلى الجانب الآخر من التجربة – أعني أبناء برج النور – حدثت مجموعة من المتغيرات نتيجة لعملية التفاعل التـي تمت بينهم وبين الأفكار الجديدة التي حملناها إلـيهم، وهـي متغيرات تعطي مؤشرا إيجابيا لخروجهم من الصمت والعزلة والسكون والرفض السلبي إلى أشكال من الوعي والمواجهـة والمشاركة والفعل المستقل.

***

ولا شكَ في أن المجال الذي كـان لـه التـأثير الأكبـر على التركيب النفسي والقيمي لأبناء الموقع هـو المسـرح، وقد ساعدنا أن تجربتنا المسرحية لم تبدأ من فراغ فلقد كانت هناك – كما سبق أن أشرت –حالة مسـرحية لهـا مظهـر موسمي ودرجة من الاستجابة الجماهيرية العالية لها.

لكن الموقف انتقل بعد التجربة من مجرد (حالة) مسرحية عفوية وموسمية مبددة الآثار إلى نطاق (حركـة) مسـرحية منظمة تحكمها قواعد فنية وديمقراطية، وتربطها بمجتمعهـا روابط جدلية، تستثمر الآثار المتراكمة لنشاطها فـي اتجـاه تأصيل قيم جديدة أكثر إيجابية، وتفتح الطريق أمام أصحابها لتجاوز واقعهم والتواصل مع العالم خارج محيطهم الضيق... بعبارة أخرى أصبح المسرح عملية اجتماعية وبناءا تنظيميا وممارسة ديمقراطيـة ومحكًا للطمـوح، وتجـاوزا للعزلـة الحضارية.

وكان من نتيجة هذه الحركة المسرحية الجديدة أن:

- تغيرت نظرة الأهالي إلى فرقة الممثلين من كونهم مسلين ومرفهين عنهم مرّة كل عام إلـى كـونهم فنانين حقيقيين تفخر بهم القرية وتعتبـرهم لسـان حالها وتلبي نداءهم حين يطلبون مساندتها: (مثـل موقف الحفل المسرحي الذي تأخرنا فـي إقامتـه) وتدافع عنهم وتحميهم عندما يتعرّضـون للتهديـد: (مثل موقفها من خفراء القرية عندما استعدوا العمدة ضدّهم بعد عرض مسـرحيتهم النقديـة: حاميهـا

حراميها).. وفوق هذا وذاك فقد صـار (التجمـع) الجماهيري حول المسرح ظاهرة طبيعية يتلهفـون عليها حيث يتوحـدون مـن خلالهـا ويسـتدفئون بالمشاركة الإنسانية.

- تغيرت النظرة المحافظة إلى الممثل خاصة نظـرة الآباء التقليديين نحو اشتراك أبنائهم في التمثيل على أنه رقاعة ومضيعة للوقت ونظرة بعض الزوجات إلى أنه خراب بيوت لأنه استلب منهنَ أزواجهنَ...

وأذكر أن أحد أعضاء الفرقـة – وهـو طالـب بمعهـد المعلمين – كان يعاني من اضطهاده والـده (شـيخ البلـد) لاشتراكه في التمثيل؛ مما سبب له أزمة نفسية دفعتـه إلـى التفكير في الهرب من القرية، وجعلته شخصا خجولاً صامتًا، فقمنا بزيارة لوالده في بيته واستأذناه في اشتراكه معنا بعد أن شرحنا له جوانب المشروع التي حظيت باحترامه، وامتدحنا مواهب ابنه حتى سمح له بحرية جزئيـة.. وعنـدما أقـيم العرض المسرحي ولاقى ذلك النجاح حتى أصبح الممثلـون نجوم القرية، تغيرت نظرة الأب تماما إلى ابنه، وتـرك لـه مطلق الحرية للعمل مع الفرقة نهارا وليلاً، مسلما بحقيقة كان

يتجاهلها: وهي أن ابنه صار رجلاً، وانعكس هـذا التحـوُّل على الشاب انعكاسا خلاقًا؛ فخرج من قوقعة الانطواء وتخلى عن فكرة الهرب من القرية، وصار من أكثر أعضاء الفرقة دينامية وتطوُّرا.

وأذكر كذلك عضوا آخر بالفرقـة يعمـل موظفًـا لكـن المسرح كان جنونـه، حتـى أصـبحت زوجتـه لا تكـف عن الشجار معه بسبب ضياع كل وقته في التمثيل، حتى أنها خيرته بين حياتهما الزوجيـة وبـين المسـرح... ففضـل المسرح.. ولم تبق بينهما غير شعره قد تنقطـع فـي أيـة لحظة.. وأقيم العرض المسرحي.. وألحت عليهـا جاراتهـا حتى تصحبهنَ لمشاهدته ولم تكن قد رأت شيئًا كهـذا فـي حياتها، فضلاً عن أن تكون قد رأت زوجها وهـو يمثـل... وكان يقوم بدور البطولة في المسرحية، وذهلت الزوجة وهي تراه على المسرح شخصا آخر، قـادرا علـى أن يسـيطر على مشاعر آلاف المتفرجين... ثُم رأت بعد العرض كيـف أقيمت حفلـة تكـريم لأعضـاء الفرقـة، وكـان زوجهـا على رأسهم... فلم تكد الدنيا تسعها من السعادة والاعتـزاز بزوجها، وزاد هذا الاعتزاز عندما أُنتُخِب رئيسا للفرقة.

- تلاشــت الحساســية التقليديــة لــدى الفلاحــين من مخالطة المتعلمين بعد العمل المشـترك بـين فرقتيهمـا. كانـت حـالتهم فـي البدايـة أقـرب إلى مركب النقص أو عدم الشعور بالانتماء إلـيهم وكأنهم من جنس آخر، ثُم أصبحوا بعـد العـرض المسرحي أكثر حماسا للوحدة مع فرقة المتعلمـين ولانتخاب مجلس إدارة جديد، رغم التضحية الغالية التي دفعها "الشيخ عبد النبي" في سبيل ذلـك، فقـد كان "ريس" الفرقة على مدى سنوات عديدة، لكـن الانتخاب أتى برئيس من المتعلمين ولم يؤثر ذلـك أدنى تأثير في حماس الرجل وروحه العالية.
- وكمـا كـان الفلاحـون هـم أصـحاب المبـادرة في وحدة فرقتهم مع فرقة المتعلمين فقد كانوا كـذلك أوَّل المنضمين إلى فصول محو الأمية، رغم فشـل عدة محاولات سابقة لتعليمهم. كما كـان أعضـاء الفرقة من المتعلمين هم أوَّل المتطوعين المنضـمين إلى الدورة التدريبية لمحو الأمية؛ فقد اكتسب هؤلاء وأولئك من خلال الاحتكاك بالأفكار الجديدة والعمل المشترك – روحا جديدة تتميز بالمبادرة والمشاركة.

- وأذكر أيضا أن بعض فتيات قرية "بقطارس" علـى بعد كيلو مترات معدودة من القريـة التـي شـهد مسجدها عقابنا بالرفض الجمـاعي يـوم الجمعـة الأليمة – كسرن جدار التقاليد السميك وانضـممن إلى الفرقة المسرحية بالقرية لأوَل مرَة في تـاريخ المنطقة، وكم كان رائعا أن تراهنَ منهمكات فـي البروفات المسرحية مع الشـبان بـلا حساسـية، والشبان في صحبتهنَ، بل الأهمُ من ذلك أن نظـرة هؤلاء الشبان تغيرت إلى الفتاة التي كانـت تقـام بينهم وبينها أسوار عالية، وأصبحوا أكثر انحيـازا لمبدأ المساواة بين الرجل والمرأة.

***

(١٢)

وكان لتجربة الدورة التدريبية لمحو الأمية آثـار أخـرى لا تقل أهمية عن آثار التجربة المسرحية.

لقد عملت التجربة على إيقاظ روح المبادرة والمشـاركة والمسئولية لدى عدد كبير من الشباب المـتعلم فـي قـرى الموقع.. فلم يحدث من قبل أن انتظم خمسون شـابا وفتـاة من الطلبة والخريجين في حلقـة دراسـة كهـذه وداومـوا على حضور محاضراتها التي لم تكن تخلو مـن صـعوبات أو تناقض مع معتقداتهم الراسخة – قرابة أسبوعين، وكـانوا يأتون من قرى مختلفة سيرا على الأقدام أكثر من خمسة كيلو مترات في بعض الأحيان، والغريب أن – الفتيات كنَ أكثـر المشتركين في الدورة انتظاما في الحضور يوميـا، ورغـم ما يمثله ذلك بالنسبة لهنَ من مخاطر وتحـديات لا يسـتهانُ بها.

واستطاعت هذه المجموعة من الشباب المتحمس استيعاب قضية تغيير الظروف السلبية، والعمل على تغيير مجتمعهم، كما استطاعت أن تربط بين هذه القضية وبين قضـية محـو الأمية، وأن تتبنى منهجا جديدا لمحو الأميـة، يقـوم علـى الارتباط بين التعليم الهجائي ورفع الـوعي لـدى الأميـين، وعلى أسلوب ديمقراطي فـي تـوجيههم وتعلـيمهم يعتمـد على المناقشة وتبادل الآراء واستخلاص النتـائج مـن بـين أقوالهم هم دون أن تُفرض عليهم فرضا.

وأذكر أن الدافع الأساسي لمعظم المشتركين في الـدورة عند انضمامهم إليها كان هو الحافز المادي الذي سيحقق لهم دخلا طيبا (من أموال الأمم المتحدة كما كان شائعا) وبعد أيام من المحاضرات والمناقشات كان هذا الدافع قد تراجع حتـى كاد يختفي في الأيام الأخيرة من الدورة، وأصـبح الاتجـاه العام بينهم هو العمل التطوُعي، انطلاقًا من قناعتهم بأن لهم دورا آخر يتجاوز دورهم كمواطنين أفراد يهمهم زيادة دخلهم أو البحث عن عمل، إلى التطلع نحو المشـاركة فـي تقـدُم مجتمعهم وتحمل المسئولية تجاه مواطنيهم الذين حرموا ممـا حصلوا هم عليه... وهذا ليس كلاما من اسـتنتاجي، وإنمـا

استخلصته من بعض كتاباتهم التي طلبنا منهم أن يسجلوا فيها آراءهم ومقترحاتهم في نهاية الدورة. ولا أزعم أن ذلك كان رأي الخمسين شابا، فقد انقطع تدريجيا عن الحضور حوالي ربع هذا العدد بعد أن عجزوا عن استيعاب الاتجاهات العامة للدورة بما فيها اتجاه التطوُّع، ومن المدهش أنـه لـم يكـن من بين هذا الربع الذي تخلف عن المجموع فتاة واحدة.

ولم يكن هذا هو المظهـر الوحيـد لحمـاس الفتيـات – ومعظمهنَ حاصلات على مؤهلات متوسطة وينتظرن فرصا للعمل – فقد تحمسن للمشاركة في جميع المشروعات الخدمية الأخرى وبدأن بالفعل– بالاشتراك مع بعض زوجات زملائنا في الفريق الثقافي اللاتي صاحبن أزواجهنَ إلـى الموقـع– زيارات لبعض الأسر، تستهدف إقناعهـا بالتحـاق بناتهـا ونسائها في مشروعات التدريب والإنتاج.

***

وإلى جانب ما تقدَم، فان رصيدا هـائلاً مـن التغيـرات لن يمكن قياسه الآن إلا مع نضوج جيل جديد مـن الشـباب صغير السن كان يتابع أيامها ما يحـدث بانبهـار وشـوق إلى المشاركة دون أن يكون مهيأً بعد لها.. لكنه سيجد تحت يديه – فضلاً عن رصيد ضخم مـن الـذكريات والقيـادات والمواقف – عدة مكتبات صغيرة حافلـة بـزاد دسـم مـن الثقافات المتنوعة، تضمُ ما يزيد على خمسـة آلاف كتـاب، وهي ثروة طائلة بالنسبة لواقع ريفنا المحروم والمنعزل.

ومن الطريف أن تخلي جهاز تنظـيم الأسـرة والسـكان عن إتمام المشروع أدّى إلى نتائج إيجابية: فقد سـاعد هـذا التخلي – ربما وفقًا لقانون التحدي الذي تحدَثت عنـه مـن قبل– إلى استنفار القيادات المحلية لإنجاز بعض المشروعات معتمدين على أنفسهم، ومن بينها: الكليم والتريكو والخياطة، وكانوا يملكون بعض معداتها بالفعل في المخازن منذ سنوات بعيدة دون أن يعرفوا أمثل الأساليب لتشغيلها واسـتثمارها. وقد علمنا بعد توقف المشروع أنهم أعدوا العدَة لتشغيل هـذه المشاغل بأسلوب تعاوني من خلال جمعية تنمية المجتمـع، وهو ما كنا ندفعهم إلى تحقيقه ولم يتحقق..

وفوق ذلك... فقد حدث تغير ملموس في دينامية القيادات الرسميـة بالموقع.. من القناعة بدور المستقبل للمشروعات التي تأتي إليهم من خارج الإقليم، اكتفـاء بمهـام توزيعهـا وإدارتها، إلى دينامية الفعل والمشاركة والابتكار في الوسائل والأساليب والحلول النابعة من البيئة للمشاكل القائمـة مثـل إنجازهم للدراسـات التـي طلبناهـا مـنهم حـول بعـض المشروعات، ومثل تبنيهم لاتجاه تحريـر جمعيـات تنميـة المجتمع من ركودها وتخلفها، وأخيرا اتجاههم لبناء معرض دائم لمنتجات المشروع عند مدخل القرية في ملتقى الطـرق المؤدية إلى القرى والمدن المجاورة.

***

(١٣)

قد تكون هناك أسباب موضوعية مختلفة لإجهاض هـذه التجربة..؟

من هذه الأسباب موقف الإداريين بجهاز تنظيم الأسـرة، وهو الموقف الذي يميز كل أجهزتنا الحكومية، وتلعب فيـه البيروقراطية دورا أساسيا، وقد يضاف إلـى هـذا الـدور ما شعر به الإداريون – بقرون استشعارهم وأنـوفهم التـي تجيد شمّ اتجاهات رئاساتهم الحكومية؛ ومن ثَم تعمـل علـى إرضائها– من عدم تحمس رئيس الجهاز لتنفيذ المشـروع، بالرغم من أنه قد لا يكون قد أعطاهم توجيها يعني ذلـك... فعلموا على اتخاذ الموقف السلبي، أو في أحسـن الأحـوال إلى موقف إمساك العصا من المنتصف بشكل لا يعود عليهم باللوم أيا كانت النتائج. وقد يضاف إلى ذلك أيضـا شـعور آخر أصبح يتملك الإداريين بمرور الوقت، هو أقـرب إلـى الشعور الطبقي، إزاء ما استقرّ في نفوسهم من أن أعضـاء وحدة التنمية هم طبقـة مـن أسـاتذة الجامعـة والـدكاترة المتفرغين لكتابة مئات الصفحات النظرية – التي تجـاوزت

آلاف، وأن كل ما عليهم – أي الإداريين – عمله هو تحرير شيكات بمكافآتهم المرتفعة، التي لا يتحصلون هم على جزء منها في عملهم الوظيفي؛ مما جعلهـم يعتبـرون المشـروع برمته عبئًا إضافيا لا طائل من ورائه... وليس هذا استنتاجا مني، بل إنني قد سمعته صراحة من أكثر من موظف مـن الإداريين. فلا غرابة إذن في أن نجدهم يعرقلون خطواته، أو على الأقل لا يكترثون بدفعه إلى الأمام، خاصة وأن (السادة الدكاترة) رجال المشروع لم يتفضلوا بدعوة الإداريين للتفاهم معهم حول أبعاد المشروع، أو حتى حول ما يطلبـون... إلا متأخرا جدا..

وقد كان الأمر يتطلب دينامية خاصة وخبرة غير أكاديميـة للتعامل مع جهاز إداري يرزح تحـت أحمـال مـن اللـوائح البيروقراطية العتيقة – وذلك قبل البدء في التنفيذ بمدَّة طويلة.

ومن هذه الأسباب أيضا: طول المدَّة التي استغرقها المسح الشامل لقرى الموقع، والأبحاث النظرية الخاصة بالتجربـة، والتي استغرقت ما يقرب من ثلاث سنوات... ممـا يسـبب هبوط الإيقاع العام للمشروع وقوَّة الدفع المحركة له، وممـا فتح مجالاً واسعا للقوى المعارضة من خارجه كـي تـنظم

نفسها للانقضاض عليه.. والأمر كان يمكن أن يكون أبسـط من ذلك وأسرع، فإننا لا ننسى أن التجربة الثقافيـة التي قمنا بها في الموقع بدأت بعد عـامين مـن بدايـة المشـروع، واستغرقت عاما واحدا تدخل فيه عـدة شـهور اسـتغرقتها الدراسات الميدانية الخاصة بالعمل الثقافي، ومع ذلـك فـان نتائج عمل ذلك العام الوحيد قد لا ينتهي الحديث عنها.

والمسألة في حقيقتها هي منهج في البحث... فهناك فـرق بين منهج يسعى إلى خلق تصميم هيكلي لنموذج جديد متطور ومتميز في التنمية الريفية يضاف إلى أدبيات التنميـة فـي العالم الثالث، ولو استغرق ذلك سنوات طوال، وبالتالي فـإن المواطنين الذين تُجرَى عليهم الدراسـات، وتُجمـعُ عـنهم الإحصائيات، وتُوضعُ بشأنهم الخطط ليسوا أكثر من (عينات بحث)... وبين منهج يعتبر أن أي مشروع للتنمية ليس فقـط مجموعة دراسات وإحصائيات وبرامج، بـل يشـمل أيضـا – ومنذ اليوم الأول لنزول أوّل باحث إلى الموقـع ليجمـع معلومات عنه وعرف فيه الأهالي شيئًا اسـمه المشـروع – هؤلاء الأهالي كطرف أساسي في علاقة جديدة لهـا نموهـا الذاتي مع رجال المشروع لا بدّ أن تتطوّر كأي كائن حـي حتى ولو تعثرت الأوراق أو التنفيذ.

وقد كان المنهج الذي أُتبع في المشـروع فـي العـاملين الأوَلين على الأقل من النوع الأول؛ فكانت النتيجـة هبـوط الإيقاع والانفصال عن درجة حرارة الموقع، والتـي كانـت كفيلة – لو وصلت إلى فريـق البحـث – أن تـدفعهم إلـى الإسراع بإنجاز المشروع قبل فوات الأوان، أو على الأقـل إنقاذ ما يمكن إنقاذه.

أما المنهج الآخر فقد كان يتطلب أن يقيم رجال المشروع في مرحلة البحث غرفة عمليات في الموقع، يديرون خلالهـا حوارا مستمرا مع الأهالي، ويفـرزون القيـادات التقليديـة والجديدة، ويشركون أبناء الموقع معهـم فـي كـل شـيء، ولا بأس أن يبدأ تنفيذ بعـض المشـروعات التـي انتهـت الدراسات بشأنها حتى تشبع ترقبهم وتشعرهم بجدية القائمين على المشروع.

***

وحتى لا نغرق في الأوهام، فان ما تقـدّم مـن أسـباب في إحباط التجربة – على أهميتها – لم يكن السبب الرئيسي في ذلك... صحيح أن تلافي تلك الأسباب كـان يمكـن أن يحقق كمـيـة أكبر من الإنجازات في المواقع، أو أن يجعل التحقق الفعلي للمشروع يتمُّ في عامين مثلاً بدلاً مـن عـام واحد... لكنه إن آجلاً أو عاجلاً كان لا بدّ أن يتوقف.. لأنـه كان يحمل في داخله بذره نهايته... وهذه البذرة القاتلة هـي التناقض الفكري منذ البداية بين رؤية فريق البحـث وبـين رؤية الدكتور البنداري رئـيس الجهـاز المشـرف علـى المشروع – ولم يسع أحد الجانبين بشكل جدي إلى حل ذلـك التناقض، فقد اكتفى فريق البحث بالاستغراق فـي صـياغة الأبحاث والخطط والحصول على تزكيات عدد من خبـراء التنمية لها. معتمدين على أن الأمم المتحـدة هـي صـاحبة الكلمة الأخيرة، وأن نجاح التجربة في الواقع عند ممارسـتها سيتكفل بحل ذلك التناقض واكتفى رئيس الجهاز بالمناقشـات التجريدية – التي كانت أشبه بالتمرينات الذهنيـة – وبتـرك التجربة تأخذ مجراها على طريقة: (حسن – دعنا نرَ!) والتي كانت تعكس تكوينه الليبرالي.

ونسي الطرفـان – أو تناسـيا – أن ممارسـة التجربـة في الواقع لا يمكن أن تتمَ بمعزل عـن مجمـل الظـروف الموضوعية السائدة، اجتماعية واقتصادية وسياسية، وجهـاز تنظيم الأسرة بالطبع جزء من هذه البنية ومحكوم بشروطها، ضاقت أو اتسعت مساحة الهـامش الـذي يتحـرك فوقـه رئيسه... ولم تكن هذه البنية لتسمح قط لمشروع كهذا قـائم على فلسفة كهذه أن يستمرَ إلى نهايته، إلا إذا فُـرض عليـه نوع من الحجر الصحي حتى لا تنتقل العـدوى منـه إلـى الخارج؛ ومن ثَم فقد كان الإجهاض قدرا لا مفرَ منه.

وإن كان الإجهاض المبكر قدرا على محاولات المخلصين عن أجيال متعاقبة للمشاركة في تحريـر الصـامتين مـن صمتهم في مساحات الظلمة المنسـية أو المنفيـة.. وهـم الفلاحون.. فإن العائد القليل الذي تخرج به القوافل الفدائية من أصحاب هذه المحاولات قد يعدُ كثيرا بمقياس التعـرُف الحقيقي على الشعب واكتشاف الطرق الصحيحة للوصـول إليه والارتفاع به.. وهناك مقياس آخر قد نرى على ضوئه العائد القليل عظيما، ألا وهـو قـانون التطـور، فالنبتـات الصغيرات التي نضعها في التربة تصـبح يومـا شـجرات

باسقة، فإذا اشتدت عليها الرياح العاتية وحاولت اقتلاعها، فسوف يبقى منها يقينًا ما هو جدير بالبقـاء.. وإذا كانـت محاولتان صغيرتان مثل اللتـين ضـمهما هـذا الكتـاب، واستغرقتا في مجموعهما أقل من ثلاث سنوات، قد ساعدتا على أن تجعلا الصامتين ينطقون، ويرفضون، ويواجهـون، ويتحرَكون... فما أدرانا ماذا تحمل الأيام؟

عز الدين نجيب

***

هوامش الجزء الأول

(١) سعد كامل :

بدا عمليه السياسي مبكرا بالانضمام إلى الجنـاح الثـائر بالحزب الوطني، ثُم أصبح من أنشط العناصر في الجماعات الثورية المصريـة في الخمسينيـات... سجِن أكثر من مرَة كان آخرها ٥٩ – ١٩٦٤ ، وكان مطلوبا القبض عليه عـام ١٩٧٥، ويعدُ من مؤسسي حركة السلام العالمي في مصـر. بدأ حياته العملية كمحامٍ ثُم اتجه إلى الصحافة. رأس تحريـر مجلة الكاتب (منبر أنصار السـلام) سـنة ١٩٥٠، وعمـل بجريدة الأخبار حتى وصل إلى منصب مدير التحرير بهـا قبل انتقاله إلى الثقافة الجماهيرية، وعاد إليها ١٩٦٨.

(٢) الجامعة الشعبية:

تأسست في الأربعينيات كجهاز تابع لـوزارة المعـارف العمومية، وكانت معنية بتقديم برامج تثقيفية سـريعة لتعلـيم بعض الحرف واللغات والهوايات المختلفة، وأخذت تضـمر إلى أن جاءت وزارة الثقافة الأولى للدكتور ثروت عكاشـة في أوائل الستينيات، تحوّل اسمها إلى "جامعة الثقافة"، وبـدأ تحويل مراكزها في المحافظات إلى قصور ثقافية، وزوّدهـا ببعض القوافل الثقافيـة والإمكانات الأخرى، لكنه حين ترك الوزارة ضمرت مرّة أخرى، إلى أن عاد إلى الوزارة ١٩٦٦ فبعث الحياة فيها وحوّل اسمها إلى "الثقافة الجماهيرية".

٣- من بين الشخصيات ذات الميول اليسـارية التـي وضعها د. ثروت عكاشة علـى رأس مؤسسـات وزارته: محمود أمين العالم، د. عبد العظيم أنيس، د. عبد الرازق حسن، ألفريد فرج، حسن فـؤاد، د. علي الراعي، سعد كامل.

٤- من بين المثقفين الذين استعان بهـم سـعد كامـل في تجربته بالثقافة الجماهيرية: من الكُتاب: محمود دياب، ألفريد فرج، علي سالم، يعقوب الشـاروني، محمد صدقي، ومن المسرحيين: حمدي غيث، علي الغندور، محمود حجازي، ومن التشـكيليين: هبـة عنايت، حسين بيكار، أبو العينين، ومن الموسيقيين: سليمان جميل، علي فراج.. بالإضافة إلى لفيف من الصحفيين والأدباء والفنانين والساسة الذين تعاطفوا مع التجربة.

٥- عاد محمد عفيفي مطر للعمل مرَّة أخرى بالقصـر متفرغًا حين أمكـن انتدابـه مـن وزارة التربيـة والتعليم.

(٦) مجموعة الدكتور علي النويجي:

وكانت تنطلق في حركتها وسط جماهير دسـوق وكفـر الشيخ من وثائق الناصرية، خاصة الميثاق وبيان ٣٠ مارس، ولعلها كانت ضمن من يرون أن في داخل السلطة الناصرية جناحا اشتراكيا يمكن النفاذ عن طريقه خـلال المؤسسـات القائمة للعمل وسط الجماهير، وكانـت مجموعتـه تتكـوَن من بعض المحامين والمدرسين والعمال، ونجحت في تنشـئة جيل من الشباب يؤمن بالاشتراكية وبضرورة تغيير البنـاء الطبقي والسياسي بـ "كفر الشيخ"، واسـتطاعوا أن يـؤثروا إلى حد بعيد في جماهير الفلاحين من خلال شعار سـيطرة صغار الفلاحين على التعاونيات، وشعار إقامة اتحـاد عـام للفلاحين المصريين، طامحين بـذلك إلـى إقامـة "حركـة ديمقراطيـة" أساسها الفلاحون. من أهم أعضاء المجموعـة المحامون :د. جلال رجب، محمد عبد الهادي بشت. وشباب آخرون مثل السيد أبو اليزيد.

(٧) عبد الصبور منير:

نضجت موهبته الشعرية في خضم الحركـة الجماهيريـة التي كان يقودها علي النويجي وقصر الثقافة؛ ممـا انعكـس في نبرته التعبيرية العالية والتزامه الواضح بقضـايا الواقـع والثورة. لكنه منذ سنوات استشهد في حادث سيارة بالجزائر حيث سافر للعمل، وترك وراءه عدة دواوين شعرية لم يـر النور منها غير ديوان واحد.

٨- ذهبت في ذلك الموعد لمقابلة الوزير، إلا أنـه لـم يكن موجودا!

٩- استمرَ هؤلاء الفنانون الثلاثة في إنتاجهم الفني بعد توقف التجربة، والتحق **حامد صقر وبكري محمـد بكري** بكلية الفنون الجميلة، وتخرّجا فيهـا بتفـوُق وعين الأول معيدا بكلية الفنون الجملية بالقـاهرة، وعـين الثـاني معيـدا بكليـة الفنـون الجميلـة بالإسكندرية، أما الثالث فقد عين فيما بعـد مـديرا لقصر الثقافة بـ "كفر الشيخ" بعد إعادة افتتاحـه، وما زال يشغل هذا المنصب

١٠- ظل **عبد المنعم مطاوع** يعمل بالقصر وواصل إنتاجه الفني ومعارضه، حتى عاودته أزماته النفسية الحادة بلا أحد يرعاه، ومات وحيدا في إحداها بالمستشفى العام في فبراير ١٩٨٢ بعد أن أُعطِي حقنة خاطئة.

١١- كان **علي قنديل** من ألمع المواهب في حركة الشعر الشابة بـ "كفر الشيخ"س، وبعد انتقاله إلى القاهرة في السبعينيات والتحاقه بكلية الطب تألقت موهبته في منتديات القاهرة الأدبية، وتميز بشخصية فريدة تنبأ لها النُقاد بأن تلعب دورا هاما في تطوُّر الشعر المصري الحديث، إلا أنه استشهد أيضا في حادث سيارة بـ "كفر الشيخ" عام ١٩٧٥ قبل رفيقه الشاعر عبد الصبور منير.

هوامش الجزء الثاني

١- في مرحلة لاحقة من البحث أصبح يرأس وحدة التنمية الريفية **الدكتور عبد الباسط عبد المعطي** أستاذ علم الاجتماع المساعد بجامعة عين شمس.

٢- الورقة الأولى كتبها عز الدين نجيب، والثانية كتبها **سيد سعيد:** الكاتب والمخرج السينمائي.

٣- تشكل الفريق الثقافي من الزملاء: **د. حسن الخولي** مدرس الاجتماع بجامعة عين شمس، **عباس أحمد**– المخرج المسرحي بالثقافة الجماهيرية، **حسن شعبان** – (جامعة حلوان) للإشراف على مشروع محو الأمية.

٤- كان المدير التنفيذي للموقع هو الأستاذ **محمد السيد**– الخبير التعاوني.

٥- من كتاب : "اقرأ – اعرف – اتعلم". وكتب هذه الحكاية **د. محمد المنسي قنديل.**

٦- من كتاب "المدرس" وكتب مادته **الأستاذ بشير صقر.**

٧- مؤلفو الكتاب هم بالترتيب: **د. محمد المنسي قنديل، وبشير صقر، وعز الدين نجيب.**